حقيقة الشرك

تأليف : أبي شعيب

الطبعة الثانية : ذو الحجة – ١٤٣٠ هـ

مقدمة الطبعة الثانية :

بسم الله الرحمن الرحيم ،

الحمد لله ، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله ، محمد وعلى آله وصحبه وسلّم ، وبعد :

فهذه هي الطبعة الثانية من كتابي : حقيقة الشرك ، أصدرها بعدما وردت عليّ بضعة إشكالات استدعت مني توضيحها وبيانها .

وقد فهرستُ هذا الكتاب بصورة أكثر تفصيلاً من الطبعة الأولى ، وقمت بتصحيح بعد الأخطاء المطبعية التي وقعت في الطبعة الأولى .

هذا ، والله وليّ التوفيق .

مقدمة الطبعة الأولى :

بسم الله الرحمن الرحيم ،

الحمد لله ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فإن الاضطراب الحاصل في تحديد حقيقة الشرك في العبادة ، أوقع الكثير من المنتسبين للعلم في شطحات كبيرة ، وجرّهم ذلك إلى الزلل في مسائل التكفير ، وهي من أعظم مسائل الدين وأشدها خطورة .

فصاروا يكفّرون كثيراً من المسلمين بمجرد البدعة التي ظنوها شركاً أكبر . ونحا آخرون منهم منحى متشدداً فقالوا بعدم الإعذار بالجهل في الشرك الأكبر الذي أخطأوا في تحديده ابتداء ، ثم بنوا على هذا الخطأ المنع من العذر فيه ، إذ أنه لا يُمكن لمن عبد غير الله - تعالى - أن يكون موحداً ، سواء أكان جاهلاً أم عالماً ، وهذا مما لا يستقيم له العقل .

وإذ أن هذا الكلام صحيح ولا غبار عليه ، إلا أن خطأهم في ضبط وتقسيم العبادة ، حاد بهم عن سواء السبيل ، فأدرجوا في مسمى الشرك الأكبر كثيراً من الأفعال والأقوال مما ليست فيه ، وأفضى بهم ذلك إلى تكفير كثير من المسلمين .

وحيث إن خلافنا مع إخواننا أهل العلم هو في مفهوم شرك العبادة ، مع اتفاقنا على مفهوم شرك الربوبية ، فإني سأخصص هذا البحث لتوضيح هذا المفهوم الذي أشكل على كثير من طوائف المسلمين .

وبعد حوارات طويلة مع حملة هذا المنهج ، وقراءة وبحث في هذه المسألة ، ارتأيت أن أكتب شيئاً لعله يكشف بعض الإشكالات التي اعترت الخائضين في هذه المسألة ، ويوضح بعض المبهمات التي أحدقت بها والتبست فيها على الناس .

والله العظيم أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأسأله أن ينفعني به والمسلمين .

أبواب البحث :

الباب الأول : بيان حقيقة الشِّرْك

أما لغة ، فهو على معان ، منها :

- **المخالطة في الشيء .**

قال ابن فارس في [مقاييس اللغة : ٣/٢٦٥]:
[-- الشركة هو أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد بهما أحدهما ، ويقال : شاركت فلاناً في الشيء ، إذا صرت شريكه . وأشركت فلاناً ، غذا جعلته شريكاً لك ، قال تعالى حكاية عن موسى - عليه السلام - : { وأشركه في أمري } ، ويقال في الدعاء : (اللهم أشركنا في دعاء المؤمنين) : معنى الآية : اجعله شريكي فيه ، ومعنى الدعاء : اجعلنا شركاء في دعائهم --]

وقال الراغب في [المفردات : ٢٥٩] :
[-- الشركة والمشاركة : خلط الـــمُلْكَين ، وقيل : هو أن يوجد شيء لاثنين فصاعداً ؛ عيناً كان ذلك الشيء أو معنىً ، كمشاركة الإنسان والفرس في الحيوانية --]

وبهذا المعنى يُفهم قوله - تعالى - : **{ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً } [الإسراء : ١١١]** ، وقوله : **{ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ } [النساء : ١٢]** ، وقوله : **{ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } [الرعد : ١٦]**

ومنها :

- **الحصة والنصيب .**

قال ابن منظور في [لسان العرب : ١٠/٤٤٨]:
[-- والأشْراكُ أيضاً جمع الشِّرْك ، وهو النصيب ؛ كما يقال : قِسْمٌ وأقسام . --]

ومثل هذا المعنى ما ذكره الله – تعالى – في قوله : **{ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ }** [سبأ : ٢٢]

ومنها :

- **المساواة والمماثلة :**

قال ابن منظور في [لسان العرب : ١٠/٤٤٨]:

[- - وطريق مُشْتَرَك يستوي فيه الناس ؛ واسم مُشْتَرَك : تشترك فيه معان كثيرة ؛ كالعين ونحوها ، فإنه يجمع معانيَ كثيرة - -]

وقال في نفس الصفحة :

[- - وأَشْرَك بالله : جعل له شَريكاً في ملكه ، تعالى الله عن ذلك . والاسم : الشِّرْكُ . قال الله - تعالى - حكاية عن عبده لقمان أنه قال لابنه : { يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بالله إن الشِّرْكَ لَظُلم عظيم } . والشِّرْكُ أَن يجعل لله شريكاً في رُبوبيته ، تعالى الله عن الشُّرَكاء والأنداد ، وإِنما دخلت التاء في قوله "لا تشرك بالله" لأن معناه : لا تَعْدِلْ به غيره ، فتجعله شريكاً له . وكذلك قوله - تعالى - : { وأَن تُشْرِكوا بالله ما لم يُنَزِّل به سُلْطاناً } لأن معناه : عَدَلُوا به ، ومن عَدَلَ به شيئاً من خَلقه فهو كافرٌ مُشرِك ، لأن الله وحده لا شريكَ له ، ولا نِدَّ له ، ولا نَديدَ - -]

والمشرك الذي يُشرك بالله غيره ، قد جمع بين هذه الثلاث . فمن جعل لله شريكاً في مُلكه ، فإنه لم يُفرد الله – تعالى – بالملك ، بل جعل الـمُلك في مالكين ، وهذا هو معنى المخالطة . ومن جعل مالكين لشيء ما ، فقد جعل لكل واحد منهما نصيباً في الـمُلك ، فحقّ فيه المعنى الثاني . ومن جعل مالكين في شيء واحد ، فقد ساوى بينهما في فعل التملّك ، وإن كان لأحدهما نصيبٌ يفوق الآخر . **فمن اعتقد بواحدة من هذه المعاني ، فقد اعتقد بها جميعاً ولا بد .**

أما اصطلاحاً ، فإنه لا يخرج عن المعنى اللغوي .

قال الطبري في تأويل قوله – تعالى - : **{ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }** **[البقرة : ٢٢]** :

[-- والأنداد جمع نِدّ ، والنِّدّ : العِدْلُ والمِثل ، كما قال حسان بن ثابت :

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِنِدٍّ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

يعني بقوله : "ولستَ له بند" : لست له بمِثْلٍ ولا عِدْلٍ . وكل شيء كان نظيرًا لشيء وله شبيهًا فهو له ند --]

ثم ذكر أقوال السلف في إثبات هذا المعنى .

فالشرك بالله U هو اتخاذ الأنداد مع الله ، كما قال الله – تعالى - : **{ وَجَعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ }** **[إبراهيم : ٣٠]**

لذلك فإن الكفّار يقولون في جهنهم ، كما ذكر الله – تعالى - : **{ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (*) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ }** **[الشعراء : ٩٧-٩٨]**

وبهذا المعنى فسّر الرسول r الشرك ، عندما سُئل عن أيّ الذنب أعظم عند الله ، فقال : « **أن تجعل لله نداً وهو خلقك** » **[رواه الشيخان]**

وهذا المعنى للشرك قائم في النوعين : الأكبر والأصغر ؛ وما يُفرّق بين النوعين هو النيّة . فالشرك الأكبر يؤدى مع اعتقاد الربوبية في المألوه ، كقدرة مطلقة ومستقلة ، غير معلّقة أو مقيّدة ؛ أو مشيئة مستقلة ، أو علم مطلق مستقل ، وما إلى ذلك مما لا يكون إلا لله U ، وسيأتي بيان ذلك قريباً بالتفصيل – بإذن الله - .

أما الشرك الأصغر فهو كل ما يُتعبّد لله U به ، لكن يُؤدّى لغيره دون اعتقاد الربوبية في هذا الغير ، ويُستثنى من ذلك الشعائر التوقيفية ، ذات الأوراد والأذكار والطقوس المحددة ، كالصلاة والحج ، فمن أداها لغير الله U ، كأن يصلي لهذا الغير ، أو يحجّ لهذا الغير ، فيمتنع في صحيح العقل أن يكون ذلك دون اعتقاد الربوبية في هذا المعبود من دون الله ، فهذا أمر شديد الاستشناع في الفطرة ، ولا يكاد يجادل في تلازمها مع اعتقاد الربوبية في المعبود أحد .

فخلاصة القول في هذه المسألة أنّ الشرك الأصغر هو ما ظاهره مساواة الخالق بالمخلوق ، مع عدم قصد صاحبه لهذه التسوية ، وانتفاء اعتقاده للربوبية في غير الله I .

وفي ذلك يقول إبراهيم البريكان – رحمه الله – في [المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية : ١٤٨]:
[-- والشرك الأصغر هو : تسوية غير الله بالله في هيئة العمل ، أو أقوال اللسان . فالشرك في هيئة العمل هو الرياء ، والشرك في أقوال اللسان هو : الألفاظ التي فيها معنى التسوية بين الله وغيره ، كقوله : ما شاء الله وشئت ، وقوله : اللهم اغفر لي إن شئت . وقوله : عبد الحارث ، ونحو ذلك --]

والشيخ هنا حصر الشرك الأصغر في الأعمال في الرياء ، مع كونه يتجاوز الرياء ، كتعليق التمائم والتولة والطيرة ، وما إلى ذلك . و لم يذكر كذلك في تعريفه أعمال القلوب ؛ كالتشاؤم ، والتوكل على الأسباب ، وغير ذلك . ولكن ما يعنيني في تعريفه للشرك الأصغر هو أنه تسوية غير الله به I ، فوافق ذلك المعنى اللغوي .

ودليل ذلك ما يلي :

١- تسمية الشرك الأصغر : شركاً ، يدلّ على أنّ فيه من معاني الشرك ما تم ذكره سابقاً .

٢- جاء في الحديث الصحيح أن رجلاً قال للنبي r : ما شاء الله وشئت ؛ فقال النبي r : « **أجعلتني لله نداً ؟! بل ما شاء الله وحده** » **[رواه أحمد وابن ماجة]**

فبيّن النبي r أنّ هذا اللفظ في ظاهره يُساوي بين مشيئة الله I وبين مشيئة نبيه r ، فكان بذلك شركاً أصغر .

٣- جاء في الحديث الصحيح عند الترمذي أن رسول الله r لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط ، يعلقون عليها أسلحتهم . فقالوا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال النبي r : « **سبحان الله ، هذا كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم** »

فجعل قولهم : اجعل لنا ذات أنواط ، كقول أصحاب موسى u : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .

٤- أخرج البخاري بسند صحيح في "الأدب المفرد" عن معقل بن يسار قال : انطلقت مع أبي بكر t ، إلى النبي r فقال : « **يا أبا بكر ! للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل** » . فقال أبو بكر : (وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلهاً آخر ؟) ، فقال النبي r : « **والذي نفسي بيده ، للشرك أخفى من دبيب النمل . ألا أدلك على شيء إذا فعلته ذهب قليله وكثيره ؟!** » ، قال : « **قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم** » .

فلو كان الشرك الأصغر ليس اتخاذ إله غير الله U ، لصحح النبي r لأبي بكر t مفهومه للشرك ، ولبيّن أن الشرك الأصغر ليس من هذا النوع .

ومن أمثلة الشرك الأصغر التي في ظاهرها مساواة الخالق بالمخلوق ، ما رواه ابن أبي حاتم في [تفسير ابن أبي حاتم : ٥٨/١]: عن ابن عباس أنه قال في قوله – تعالى – : { **فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا** } ، قَالَ : (الأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ : وَاللَّهِ ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلانَةُ ، وَحَيَاتِي . وَيَقُولُ : لَوْلا كَلْبُهُ هَذَا لأَتَانَا اللُّصُوصُ ، وَلَوْلا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لأَتَى اللُّصُوصُ ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ : لَوْلا اللَّهُ وَفُلانٌ ، لا تَجْعَلْ فِيهَا فُلانًا ؛ فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ بِهِ شِرْكٌ) .

- فصل :

والشرك أيضاً هو العمل لغير الله U ، إذ أن فيه جميع معاني الشرك المذكورة سابقاً ؛ وقد بيّن ذلك رسول الله r في الحديث الصحيح : « **قال الله - تبارك وتعالى - : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري : تركته وشركه** »

وهذا الشرك متعلقه الألوهية . وليس هو في جميع الأعمال ، بل هو في الأعمال التعبّدية التي شرعها الله I وجعلها عبادة بنفسها ، كالصلاة والصدقة وقراءة القرآن والجهاد ، وما إلى ذلك . ودليل ذلك قول النبي r : « **من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله U ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا : لم يجد عرف الجنة يوم القيامة** »

يُفهم من هذا الحديث أنّ ذلك محصور في العلوم الدينية ، وقد يتعلم المرء بعضاً من العلوم الدنيوية ، يبتغي بذلك مالاً أو جاهاً يصرفه في المباح ، يتمتع به بزينة الحياة الدنيا التي أحلها الله U ، وليس ذلك من الشرك . مع أن النيّة يُمكنها أن تُحيل هذا العمل إلى عبادة .

ويجب التنبّه إلى مسألة هامّة في هذا الصدد ، وهي : الفرق بين العمل من أجل المال ، والعمل من أجل غير الله .

فقد جوّزت النصوص الشرعية أن يكون في نيّة المرء شيئاً من حظوظ الدنيا في عمله الديني ، كأن يُجاهد في سبيل الله U ، وأصل نيته هو إعلاء كلمة الله ، وفي نيته أيضاً الحصول على المغنم ، تبعاً لا أصلاً ، بحيث أنه سيجاهد ، غنم أم لم يغنم ؛ لكنّ أجره ناقص بذلك .

وكذلك الحال فيمن أمّ الناس في الصلاة وأخذ الأجرة على ذلك ، وفي نيّته أنه حتى لو لم تكن هناك أجرة فإنه يصلي .. فمثل هذا ينقص أجره ، لكن لا يُبطل عمله .

وأجمعت الأمة مع هذا على أن يسير الرياء يُبطل جميع العمل . ومثل هذه المسألة مبسوطة في غير هذا الموضع في مظانها .

ولعلّ العلّة في التفريق بين ذينك الأمرين هي ما يقوم في القلب من أحوال عند مراءاة الناس ، فينصرف تعلّق القلب بالله U ورجائه ، إلى غير الله ورجائه . فيُحسّن المرء من عمله وعبادته وطاعته ويزيّنها ، التي لا يجب أن تُصرف إلا لله ، (وتحسين أداء العبادة عبادة) حتى يُرضي غير الله I .

أما عند طلب المال من خلال الفعل التعبّدي ، فإنه يطلبه من الله I بفعله هذا ، دون مراءاة للناس أو سعياً في رضاهم ، كما يطلب العبد الجنّة بأعماله ، أو ينذر لله عبادة بشرط تحقق مطلب دنيوي له ، لكن من استعجل ثواب عمله في الدنيا ، نقص أجره في الآخرة .

ويجب أن يُعلم أيضاً أن الرياء بحد ذاته شرك إن كان يقصد به صاحبه ثناء الناس ، سواء كان في عمل تعبّدي أو غيره . لأن المرائي لا بدّ أن يقوم في قلبه تعظيم لنفسه وإعلاء لشأنه بطلب مديح الناس وثنائهم عليه ، وهذا من الاختيال والفخر الذي قال الله U فيه : **{ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } [لقمان : ١٨]**

أما إن قصد بفعله إرضاء الناس من أجل أموالهم أو مصلحة دنيوية أخرى ، لا من أجل ثنائهم أو مديحهم ؛ فهذا إن كان في فعل تعبّدي : فهو شرك ، وباطل عمله . وإن كان في غير ذلك : فإنه لا يأثم صاحبه ولا أجر له . كمن يُحسن صنعته من أجل أن يرضى عنه ربّ العمل فيُكافئه . فإن نوى الله U وربّ العمل بفعله : فلا أجر له حتى يجعل نيّته كلها لله U ، ولا إثم له إن لم يتعد حدود الله . وكذلك الحال فيما لو نوى ربّ العمل فقط ، فلا أجر ولا إثم ، إن كان لا يتعدى حدود الله ولا يرتكب حراماً بنفس الفعل .

الباب الثاني : حدّ العبادة :

العبادة لغة تعني الخضوع والذل . وأما اصطلاحاً فهي : الخضوع الظاهر والباطن .

• **أما لغة** ، فقد قال ابن الأنباري في [تهذيب اللغة : ٢/٢٣٦]: [-- **فلان عابد : وهو الخاضع لربه ، المستسلم لقضائه ، المنقاد لأمره** --]

وقال الباجي في [الحدود : ٥٧] : [-- **والعبادة هي التذلل والخضوع للمعبود بما يكون من فعل يقصد به خدمته في أمره** --]

وقال ابن منظور نقلاً عن الزجاج في [لسان العرب : ٣/٢٧٣]:
[-- **ومعنى العبادةِ في اللغة : الطاعةُ مع الخُضُوعِ ، ومنه طريقٌ مُعَبَّدٌ : إِذا كان مذللاً بكثرة الوطءِ** --]

وقال الطبري في تفسيره عند قوله الله U : { **فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ** } **[المؤمنون : ٤٧]** :
[-- { **لَنَا عَابِدُونَ** } **يعنون : أنهم لهم مطيعون متذللون ، يأتمرون لأمرهم ، ويدينون لهم . والعرب تسمي كل من دان لملك : عابداً له . ومن ذلك قيل لأهل الحيرة : العباد ؛ لأنهم كانوا أهل طاعة لملوك العجم** --]

• **أما اصطلاحاً** ، قد جاء هذا المعنى في قوله I : { **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً** } **[النساء : ٦٥]**

جاء في تفسير ابن كثير عند هذه الآية : [-- وقوله : { **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ** } : **يقسم - تعالى - بنفسه الكريمة المقدسة : أنه لا يؤمن أحد حتى يُحَكم الرسول r في جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ؛ ولهذا قال :** { **ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** } **أي : إذا حكّموك يطيعونك في بواطنهم ، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به ،**

وينقادون له في الظاهر والباطن ، فيسلمون لذلك تسليماً كلياً ، من غير ممانعة ، ولا مدافعة ، ولا منازعة ، كما ورد في الحديث : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » --]

إذن ، فالعبادة شرعاً هي : التسليم والانقياد الظاهر والباطن لأمر الله U ، وهو موافق للمعنى اللغوي ، إلا أنه يشمل انقياد القلب ، وليس الجوارح فقط .

وقال القرطبي – رحمه الله – في [المفهم : ١/١٨١]:
[-- أصل العبادة : الخضوع والتذلل ، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات ، لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله - تعالى - --]

وقال ابن العربي في [عارضة الأحوذي : ١١/٧١]:
[-- والعبادة هي التذلل والخضوع للمعبود ، بما يكون من فعل يُقصد به خدمته في أمره --]

أما الخضوع الظاهر ، فهو بالانقياد والإذعان بالجوارح . وأما الخضوع الباطن ، فقد ذكر ابن تيمية – رحمه الله – في [مجموع الفتاوى : ١/٩٥]:
[-- اعْلَمْ أَنَّ مُحَرِّكَاتِ الْقُلُوبِ إلَى اللَّهِ U ثَلَاثَةٌ : الْمَحَبَّةُ وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ . وَأَقْوَاهَا الْمَحَبَّةُ ، وَهِيَ مَقْصُودَةٌ تُرَادُ لِذَاتِهَا ، لِأَنَّهَا تُرَادُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، بِخِلَافِ الْخَوْفِ ، فَإِنَّهُ يَزُولُ فِي الْآخِرَةِ . قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } . وَالْخَوْفُ الْمَقْصُودُ مِنْهُ الزَّجْرُ وَالْمَنْعُ مِنْ الْخُرُوجِ عَنْ الطَّرِيقِ ، فَالْمَحَبَّةُ تُلْقِي الْعَبْدَ فِي السَّيْرِ إلَى مَحْبُوبِهِ ، وَعَلَى قَدْرِ ضَعْفِهَا وَقُوَّتِهَا يَكُونُ سَيْرُهُ إلَيْهِ ، وَالْخَوْفُ يَمْنَعُهُ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ طَرِيقِ الْمَحْبُوب ، وَالرَّجَاءُ يَقُودُهُ . فَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ يَجِبُ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَتَنَبَّهَ لَهُ ، فَإِنَّهُ لَا تَحْصُلُ لَهُ الْعُبُودِيَّةُ بِدُونِهِ ، وَكُلُّ أَحَدٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ لَا لِغَيْرِهِ --]

فأصل خضوع القلب هو بهذه الثلاث ، الحب والخوف والرجاء ، ولا تستقيم لأحد عبادة لله بدونها جميعاً ، ولكن ما هو مطلوب لذاته منها هو المحبة .

وعبادة الله U لا تكون إلا بهذه الثلاث مجتمعة ، ومتى ما تخلف أحدهما أو اختل ، انقدح توحيده .

وقال في [مجموع الفتاوى : ٢/٤٠]:

[-- وَأَصْلُ الْإِيمَانِ : قَوْلُ الْقَلْبِ ؛ الَّذِي هُوَ التَّصْدِيقُ . وَعَمَلُ الْقَلْبِ ؛ الَّذِي هُوَ الْمَحَبَّةُ عَلَى سَبِيلِ الْخُضُوعِ --]

وقال في [مجموع الفتاوى : ٧/٢٦٣]:

[-- وَحَقِيقَةُ الْفَرْقِ أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينٌ . وَالدِّينُ مَصْدَرُ دَانَ يَدِينُ دِينًا : إذَا خَضَعَ وَذَلَّ . وَدِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ وَبَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ هُوَ الِاسْتِسْلَامُ لِلَّهِ وَحْدَهُ ؛ فَأَصْلُهُ فِي الْقَلْبِ هُوَ : الْخُضُوعُ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ --]

ويقول الإمام المروزي – رحمه الله – في [تعظيم قدر الصلاة : ٦٩٥-٦٩٦] ناقلاً عن بعض أهل السنة :

[-- والإيمان في اللغة هو التصديق ، والإسلام في اللغة هو الخضوع ؛ فأصل الإيمان هو التصديق بالله وما جاء من عنده . وإياه أراد النبي r بقوله : « الإيمان أن تؤمن بالله » ، وعنه يكون الخضوع لله ، لأنه إذا صدق بالله خضع له ، وإذا خضع أطاع ؛ فالخضوع عن التصديق ، وهو أصل الإسلام . ومعنى التصديق هو المعرفة بالله ، والاعتراف له بالربوبية بوعده ، ووعيده ، وواجب حقه ، وتحقيق ما صدق به من القول والعمل . والتحقيق في اللغة تصديق الأصل ، فمن التصديق بالله يكون الخضوع لله ، وعن الخضوع تكون الطاعات ، فأول ما يكون عن خضوع القلب لله الذي أوجبه التصديق من عمل الجوارح : الإقرار باللسان ، لأنه لما صدق بأن الله ربه ، خضع لذلك بالعبودية مخلصاً ، ثم ابتدأ الخضوع باللسان ، فأقر بالعبودية مخلصاً ، كما قال الله U لإبراهيم : {أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ} ، أي : اخلصت بالخضوع لك --]

فتصديق القلب هو من معنى خضوعه وانقياده ، إذ أن الإقرار بالحق هو قبول له وإذعان .

ويقول ابن القيم – رحمه الله – في [الداء والدواء : ٢٣٠] :

[-- ثم التتيم ، وهو آخر مراتب الحب ، وهو تعبّد المحب لمحبوبه ، يُقال : تيّمه الحب ، إذا عبّده . ومنه : تيم الله ، أي : عبد الله . وحقيقة التعبد : الذل والخضوع للمحبوب ، ومنه قولهم : طريق معبّد ، أي : مذلل قد ذلّلته الأقدام . فالعبد هو الذي ذلـــله الحب والخضوع لمحبوبه ، ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته هي العبودية ، فلا منـــزل أشرف له منها --]

ويقول أيضاً في [مدارج السالكين : ٣/٢٦]:

[- -وأصل التأله التعبد ؛ والتعبّد آخر مراتب الحب . يُقال : عبّده الحب وتيمه إذا ملّكه وذلّـــله لمحبوبه . فالمحبة حقيقة العبودية - -]

فغرض الحب هو تخضيع القلب وتعبيده ، ومتى ما خضع القلب بالحب أو غيره ، فقد دخل في حيّز العبادة ، **لذلك تجعل العرب من وصل إلى آخر مراتب الحب عبداً ، لأن قلبه خضع وذلّ للمحبوب .**

إذن ، فإن حب القلب هو خضوعه وإذعانه ، الذي يحمل على خضوع الجوارح وإذعانها للمحبوب . فمتى لم يحمل هذا الحب على انقياد الجوارح ، فهو غير صادق في حبه وعبادته .

واشتقاق لفظة العبادة لغة من الذل والخضوع يؤيّد هذا المعنى ويؤكّده .

وبهذا المعنى المذكور للعبادة يقول ابن تيمية – رحمه الله – في [مجموع الفتاوى : ١٠/١٨٥-١٨٧]:

[- - وَكُلُّ مَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ بِالْمَخْلُوقَاتِ أَنْ يَنْصُرُوهُ أَوْ يَرْزُقُوهُ أَوْ أَنْ يَهْدُوهُ : خَضَعَ قَلْبُهُ لَهُمْ ؛ وَصَارَ فِيهِ مِنْ الْعُبُودِيَّةِ لَهُمْ بِقَدْرِ ذَلِكَ ؛ وَإِنْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ أَمِيرًا لَهُمْ ، مُدَبِّرًا لَهُمْ ، مُتَصَرِّفًا بِهِمْ ؛ فَالْعَاقِلُ يَنْظُرُ إلَى الْحَقَائِقِ لَا إلَى الظَّوَاهِرِ ؛ فَالرَّجُلُ إذَا تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِامْرَأَةٍ ، وَلَوْ كَانَتْ مُبَاحَةً لَهُ ، يَبْقَى قَلْبُهُ أَسِيرًا لَهَا ، تَحْكُمُ فِيهِ ، وَتَتَصَرَّفُ بِمَا تُرِيدُ ؛ وَهُوَ فِي الظَّاهِرِ سَيِّدُهَا ، لِأَنَّهُ زَوْجُهَا ؛ وَفِي الْحَقِيقَةِ هُوَ أَسِيرُهَا وَمَمْلُوكُهَا ، لَا سِيَّمَا إذَا دَرَتْ بِفَقْرِهِ إلَيْهَا ؛ وَعِشْقِهِ لَهَا ؛ وَأَنَّهُ لَا يَعْتَاضُ عَنْهَا بِغَيْرِهَا ؛ فَإِنَّهَا حِينَئِذٍ تَحْكُمُ فِيهِ بِحُكْمِ السَّيِّدِ الْقَاهِرِ الظَّالِمِ فِي عَبْدِهِ الْمَقْهُورِ ؛ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الْخَلَاصَ مِنْهُ ، بَلْ أَعْظَمُ . فَإِنَّ أَسْرَ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ أَسْرِ الْبَدَنِ ، وَاسْتِعْبَادَ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ اسْتِعْبَادِ الْبَدَنِ ؛ فَإِنَّ مَنْ اُسْتُعْبِدَ بَدَنُهُ وَاسْتُرِقَّ : لَا يُبَالِي إذَا كَانَ قَلْبُهُ مُسْتَرِيحًا مِنْ ذَلِكَ مُطْمَئِنًّا ، بَلْ يُمْكِنُهُ الِاحْتِيَالُ فِي الْخَلَاصِ . وَأَمَّا إذَا كَانَ الْقَلْبُ - الَّذِي هُوَ الْمَلِكُ - رَقِيقًا ، مُسْتَعْبَدًا ، مُتَيَّمًا لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَهَذَا هُوَ الذُّلُّ وَالْأَسْرُ الْمَحْضُ ، وَالْعُبُودِيَّةُ لِمَا اسْتَعْبَدَ الْقَلْبَ . وَعُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ وَأَسْرُهُ هِيَ الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ ؛ فَإِنَّ الْمُسْلِمَ لَوْ أَسَرَهُ كَافِرٌ ؛ أَوْ اسْتَرَقَّهُ فَاجِرٌ بِغَيْرِ حَقٍّ ، لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ إذَا كَانَ قَائِمًا بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ الْوَاجِبَاتِ ، وَمَنْ اُسْتُعْبِدَ بِحَقِّ إذَا أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ لَهُ أَجْرَانِ ، وَلَوْ أُكْرِهَ عَلَى التَّكَلُّمِ بِالْكُفْرِ فَتَكَلَّمَ بِهِ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ . وَأَمَّا مَنْ اسْتُعْبِدَ قَلْبُهُ فَصَارَ عَبْدًا لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَهَذَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ ، وَلَوْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مَلِكَ النَّاسِ . فَالْحُرِّيَّةُ حُرِّيَّةُ الْقَلْبِ ، وَالْعُبُودِيَّةُ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ ، كَمَا أَنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ . قَالَ النَّبِيُّ r : « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ

الْعَرَضِ ، وَإِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ » . وَهَذَا لَعَمْرِي إذَا كَانَ قَدْ اسْتَعْبَدَ قَلْبَهُ صُورَةٌ مُبَاحَةٌ ، فَأَمَّا مَنْ اسْتَعْبَدَ قَلْبَهُ صُورَةٌ مُحَرَّمَةٌ : امْرَأَةٌ أَوْ صَبِيٌّ ، فَهَذَا هُوَ الْعَذَابُ الَّذِي لَا يُدَانُ فِيهِ . وَهَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ عَذَابًا ، وَأَقَلِّهِمْ ثوَابًا . فَإِنَّ الْعَاشِقَ لِصُورَةٍ إذَا بَقِيَ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقًا بهَا مُسْتَعْبَدًا لَهَا ، اجْتَمَعَ لَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ مَا لَا يُحْصِيهِ إلَّا رَبُّ الْعِبَادِ ، وَلَوْ سَلِمَ مِنْ فِعْلِ الْفَاحِشَةِ الْكُبْرَى . فَدَوَامُ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بهَا بلَا فِعْلِ الْفَاحِشَةِ أَشَدُّ ضَرَرًا عَلَيْهِ مِمَّنْ يَفْعَلُ ذَنْبًا ثُمَّ يَتُوبُ مِنْهُ وَيَزُولُ أَثَرُهُ مِنْ قَلْبِهِ ، وَهَؤُلَاءِ يُشَبَّهُونَ بالسُّكَارَى وَالْمَجَانِينِ . كَمَا قِيلَ : سكران : سُكْرُ هَوًى وَسُكْرُ مُدَامَةٍ ؛ وَمَتَى إفَاقَةُ مَنْ بهِ سُكران ؟! وَقِيلَ :

قَالُوا جُنِنْتَ بمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ   الْعِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بالْمَجَانِينِ
الْعِشْقُ لَا يَسْتَفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ   وَإِنَّمَا يُصْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحِينِ

وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ هَذَا الْبَلَاءِ إعْرَاضُ الْقَلْبِ عَنْ اللَّهِ ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إذَا ذَاقَ طَعْمَ عِبَادَةِ اللَّهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ شَيْءٌ قَطُّ أَحْلَى مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا أَلَذَّ ، وَلَا أَطْيَبَ . وَالْإِنْسَانُ لَا يَتْرُكُ مَحْبُوبًا إلَّا بمَحْبُوبِ آخَرَ يَكُونُ أَحَبَّ إلَيْهِ مِنْهُ ، أَوْ خَوْفًا مِنْ مَكْرُوهٍ . فَالْحُبُّ الْفَاسِدُ إنَّمَا يَنْصَرِفُ الْقَلْبُ عَنْهُ بالْحُبِّ الصَّالِحِ ؛ أَوْ بالْخَوْفِ مِنْ الضَّرَرِ --]

فتعلّق القلب بالشيء وخضوعه له ، هو عبادة .

وقال أيضاً في [مجموع الفتاوى : ١٠/١٨٩-١٩٠]:

[-- وَكَذَلِكَ طَالِبُ الرِّئَاسَةِ وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ ؛ قَلْبُهُ رَقِيقٌ لِمَنْ يُعِينُهُ عَلَيْهَا ، وَلَوْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مُقَدَّمَهُمْ وَالْمُطَاعَ فِيهِمْ ، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ يَرْجُوهُمْ وَيَخَافُهُمْ ؛ فَيَبْذُلُ لَهُمْ الْأَمْوَالَ وَالْوِلَايَاتِ ، وَيَعْفُو عَنْهُمْ لِيُطِيعُوهُ وَيُعِينُوهُ . فَهُوَ فِي الظَّاهِرِ رَئِيسٌ مُطَاعٌ ، وَفِي الْحَقِيقَةِ عَبْدٌ مُطِيعٌ لَهُمْ . وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ كِلَاهُمَا فِيهِ عُبُودِيَّةٌ لِلْآخَرِ ، وَكِلَاهُمَا تَارِكٌ لِحَقِيقَةِ عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَإِذَا كَانَ تَعَاوُنُهُمَا عَلَى الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ بغَيْرِ الْحَقِّ : كَانَا بمَنْزِلَةِ الْمُتَعَاوِنَيْنِ عَلَى الْفَاحِشَةِ أَوْ قَطْعِ الطَّرِيقِ ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ الشَّخْصَيْنِ لِهَوَاهُ الَّذِي اسْتَعْبَدَهُ وَاسْتَرَقَّهُ يَسْتَعْبِدُهُ الْآخَرُ . وَهَكَذَا أَيْضًا طَالِبُ الْمَالِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَعْبِدُهُ وَيَسْتَرِقُّهُ ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ نَوْعَانِ : مِنْهَا مَا يَحْتَاجُ الْعَبْدُ إلَيْهِ كَمَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَمَسْكَنِهِ ومنكحه وَنَحْوِ ذَلِكَ . فَهَذَا يَطْلُبُهُ مِنْ اللَّهِ ، وَيَرْغَبُ إلَيْهِ فِيهِ ، فَيَكُونُ الْمَالُ عِنْدَهُ يَسْتَعْمِلُهُ فِي حَاجَتِهِ ، بمَنْزِلَةِ حِمَارِهِ الَّذِي يَرْكَبُهُ ، وَبِسَاطِهِ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ ؛ بَلْ بمَنْزِلَةِ الْكَنِيفِ الَّذِي يَقْضِي فِيهِ حَاجَتَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَعْبِدَهُ ، فَيَكُونُ هَلُوعًا إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ؛ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا .

وَمِنْهَا مَا لَا يَحْتَاجُ الْعَبْدُ إلَيْهِ ، فَهَذِهِ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعَلِّقَ قَلْبَهُ بِهَا ؛ فَإِذَا تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِهَا صَارَ مُسْتَعْبَدًا لَهَا ؛ وَرُبَّمَا صَارَ مُعْتَمِدًا عَلَى غَيْرِ اللَّهِ ، فَلَا يَبْقَى مَعَهُ حَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ ، وَلَا حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ؛ بَلْ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنْ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَشُعْبَةٌ مِنْ التَّوَكُّلِ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ ، وَهَذَا مِنْ أَحَقِّ النَّاسِ بِقَوْلِهِ r : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ ؛ تَعِسَ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ ؛ تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ » وَهَذَا هُوَ عَبْدُ هَذِهِ الْأُمُورِ ، فَلَوْ طَلَبَهَا مِنْ اللَّهِ : فَإِنَّ اللَّهَ إذَا أَعْطَاهُ إيَّاهَا رَضِيَ ، وَإِذَا مَنَعَهُ إيَّاهَا سَخِطَ . وَإِنَّمَا عَبْدُ اللَّهِ مَنْ يُرْضِيهِ مَا يُرْضِي اللَّهَ ؛ وَيُسْخِطُهُ مَا يُسْخِطُ اللَّهَ ؛ وَيُحِبُّ مَا أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَيُبْغِضُ مَا أَبْغَضَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؛ وَيُوَالِي أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ، وَيُعَادِي أَعْدَاءَ اللَّهِ - تَعَالَى - ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ - -]

الباب الثالث : انقسام العبادة إلى كبرى وصغرى :

عند الحديث عن عبادة الإله ، يُقال فيها : هي مطلق الخضوع الباطن ومطلق الخضوع الظاهر .

هذا هو حقيقة العبادة التي من جعل **أصلها** لغير الله I خرج من الدين ، وصار في عداد المشركين الكافرين ، وإن أخلّ ببعض جزئياتها ناله من الشرك والكفر بحسب ما أخلّ به ، كما سيبين لاحقاً - إن شاء الله - .

وهذا الإطلاق في الخضوع لا يكون إلا باعتقاد **إطلاق وشمول** داعيه ومسببه .

فمن اعتقد بقدرة الله I **المطلقة** ، وعلمه **المطلق الشامل** ، قام في قلبه من الخوف والرهبة والخشية ما لا يمكن أن يكون إلا باعتقاد صفات الربوبية تلك .

والإنسان قد يخاف إنساناً مثله في حال دون حال ، وزمان دون زمان ، ولا يُقال حينها إنه قد عبده العبادة المخرجة من الدين ، إلا إن تحقق في قلبه **مطلق** الخوف منه ، في كل الأحوال ، وكل زمان ومكان ، كما يخاف المؤمن من الله U .. كأن يخاف رجلاً مثله في كل أمر ، في حلّه وترحاله ، في سلمه وفي حربه ، فيملك عليه قلبه ، ويستحوذ عليه ذكره .. فلا يستغيث بالله ، ولا يتوكل عليه ، ولا يستنجده .

أو يخشاه في أمور يظنها قائمة بذاته ، ولا علاقة لله U بها ، كأن يظنّ أن فلاناً إن أراد شيئاً فهو كائن لا محالة ، وإن كان بغير إذن الله I .

وقد يحمله هذا الخوف المقيّد في تلك الحال المحددة على معصية الله I ، فيقع صاحبه في الشرك الأصغر ، باعتبار أنه لم يخف الله I في تلك الجزئية وخاف غيره .. كما جاء في قوله I : { **أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ** } [التوبة : ١٣]

وكما في قوله r : « **لا يحقرن أحدكم نفسه** » . قالوا : يا رسول الله ، وكيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : « **يرى أنّ عليه مقالاً ، ثم لا يقول فيه ، فيقول الله U يوم القيامة : ما منعك أن تقول كذا وكذا ؟ فيقول : خشية الناس . فيقول : فإياي كنت أحق أن تخشى** »

ومن خشي غير الله كخشيته لله ، فقد أشرك به وخرج من الدين . كما جاء في قوله - تعالى - : { **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً** } [**النساء : ٧٧**]

وكقوله I : { **لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ** } [**الحشر : ١٣**]

ويجب التنبه إلى أن خشية الناس التي هي كخشية الله : هي ما تحمل المرء على تغيير معتقده على خلاف مراد الله I ، كما قال – تعالى - : { **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ** } [**العنكبوت : ١٠**] . وتفسير هذه الآية مشهور ، والمقصود بها اعتقاد القلب ، لا فعل الجوارح .. إذ أن الإكراه عُذر شرعي في إظهار الكفر ، ويُعفى عن صاحبه في ذلك .

وكذلك يُقال في الحب والرجاء وغيرهما من الأحوال القلبية المتعلقة بالاعتقاد في المحبوب أو المرجو ، وبحسب هذا الاعتقاد يُحكم على المرء .. ومثاله ما جاء في قوله الله I : { **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** } [**التوبة : ٢٤**]

وفي الحبّ الذي هو شرك أكبر ، يقول الله – تعالى - : { **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ** } **[البقرة : ١٦٥]**

والحب الذي يكون لغير الله I ويحمل على المعصية ، شرك أصغر .

وقد ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – ضمن الشرك الخفي .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في [مجموع الفتاوى : ١/٩٣-٩٤]:

[-- وَأَمَّا الشِّرْكُ الْخَفِيُّ فَهُوَ الَّذِي لَا يَكَادُ أَحَدٌ أَنْ يَسْلَمَ مِنْهُ ، مِثْلُ أَنْ يُحِبَّ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ . فَإِنْ كَانَتْ مَحَبَّتُهُ لِلَّهِ ؛ مِثْلَ حُبِّ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَلَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْبَابِ ، لِأَنَّ هَذِهِ تَدُلُّ عَلَى حَقِيقَةِ الْمَحَبَّةِ ، لِأَنَّ حَقِيقَةَ الْمَحَبَّةِ أَنْ يُحِبَّ الْمَحْبُوبَ وَمَا أَحَبَّهُ ، وَيَكْرَهَ مَا يَكْرَهُهُ ؛ وَمَنْ صَحَّتْ مَحَبَّتُهُ امْتَنَعَتْ مُخَالَفَتُهُ ، لِأَنَّ الْمُخَالَفَةَ إنَّمَا تَقَعُ لِنَقْصِ الْمُتَابَعَةِ ، وَيَدُلُّ عَلَى نَقْصِ الْمَحَبَّةِ قَوْلُ اللَّهِ - تَعَالَى - : { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } الْآيَةَ . فَلَيْسَ الْكَلَامُ فِي هَذَا .

إنَّمَا الْكَلَامُ فِي مَحَبَّةٍ تَتَعَلَّقُ بالنُّفُوسِ لِغَيْرِ اللَّهِ - تَعَالَى - فَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ نَقْصٌ فِي تَوْحِيدِ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى نَقْصِ مَحَبَّةِ اللَّهِ - تَعَالَى - إذْ لَوْ كَمُلَتْ مَحَبَّتُهُ لَمْ يُحِبَّ سِوَاهُ . وَلَا يَرُدُّ عَلَيْنَا الْبَابُ الْأَوَّلُ لِأَنَّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي مَحَبَّتِهِ . وَهَذَا مِيزَانٌ لَمْ يَجْرِ عَلَيْكَ : كُلَّمَا قَوِيَتْ مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِمَوْلَاهُ صَغُرَتْ عِنْدَهُ الْمَحْبُوبَاتُ وَقَلَّتْ ، وَكُلَّمَا ضَعُفَتْ كَثُرَتْ مَحْبُوبَاتُهُ وَانْتَشَرَتْ . وَكَذَا الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، فَإِنْ كَمُلَ خَوْفُ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ لَمْ يَخَفْ شَيْئًا سِوَاهُ . قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : { الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ } . وَإِذَا نَقَصَ خَوْفُهُ خَافَ مِنْ الْمَخْلُوقِ ، وَعَلَى قَدْرِ نَقْصِ الْخَوْفِ وَزِيَادَتِهِ يَكُونُ الْخَوْفُ ، كَمَا ذَكَرْنَا فِي الْمَحَبَّةِ ، وَكَذَا الرَّجَاءُ وَغَيْرُهُ . فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْخَفِيُّ الَّذِي لَا يَكَادُ أَحَدٌ أَنْ يَسْلَمَ مِنْهُ إلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - . وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الشِّرْكَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ . وَطَرِيقُ التَّخَلُّصِ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ كُلِّهَا الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ U . قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : { فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ

فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } وَلَا يَحْصُلُ الْإِخْلَاصُ إلَّا بَعْدَ الزُّهْدِ ، وَلَا زُهْدَ إلَّا بِتَقْوَى ، وَالتَّقْوَى مُتَابَعَةُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ --]

ويقول في [مجموع الفتاوى : ٧/٨٢]:

[-- وَقَوْلُ النَّبِيِّ r : « إنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ » : إنْ أَرَادَ بِهِ الشِّرْكَ الْأَكْبَرَ ، فَمَقْصُودُهُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ فَهُوَ آمِنٌ مِمَّا وُعِدَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَهُوَ مُهْتَدٍ إلَى ذَلِكَ . وَإِنْ كَانَ مُرَادُهُ جِنْسَ الشِّرْكِ ؛ فَيُقَالُ : ظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ ، كَبُخْلِهِ - لِحُبِّ الْمَالِ - بِبَعْضِ الْوَاجِبِ ، هُوَ شِرْكٌ أَصْغَرُ ، وَحُبُّهُ مَا يُبْغِضُهُ اللَّهُ ، حَتَّى يَكُونَ يُقَدِّمُ هَوَاهُ عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ : شِرْكٌ أَصْغَرُ ؛ وَنَحْوُ ذَلِكَ . فَهَذَا صَاحِبُهُ قَدْ فَاتَهُ مِنْ الْأَمْنِ وَالِاهْتِدَاءِ بِحَسَبِهِ ، وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ يُدْخِلُونَ الذُّنُوبَ فِي هَذَا الظُّلْمِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ --]

وعلى هذا ، يمكن أن نقسّم العبادة إلى قسمين : عبادة كُبرى ، وعبادة صغرى :

فحيث أن من الشرك ما هو أكبر وأصغر ، فكذلك العبادة التي أوقعت في هذا الشرك ، إما أن تكون كبرى وإما أن تكون صغرى .

فمن حقق العبادة الكبرى لغير الله I ، فقد وقع في الشرك الأكبر .
ومن حقق العبادة الصغرى لغير الله I ، فقد وقع في الشرك الأصغر .

وبيان ذلك أنه لا يوقع في الشرك إلا عبادة صرفها العبد لغير مولاه ، فكان الشرك هو بحسب العبادة ، وقد تكلمنا في الباب الأول عن طرف من ذلك ، فليُراجع .

ويجدر التنويه هنا إلى أن الفارق بين نوعي العبادة هذا هو في الاعتقاد ، فالعبادة الصغرى تستحيل عبادة كُبرى إن صُرفت لمن يُعتقد فيه الربوبية ، وإن تجرّد هذا المعتقد عن الفعل ، فهي عبادة صُغرى عندئذ . فعليه ، كلّ ما يُصرف لله I من أعمال هو عبادة كبرى ، وكل ما يصرف للآلهة المزعومة من دون الله هو عبادة كبرى ، سواء كان حلفاً أو محبة أو خوفاً أو غيره .

فالكلام إنما هو فيمن صرف هذه الأمور لمن لا يُعتقد فيه الربوبية ، فعندها يكون هذا التقسيم .

وقد ذكر شيئاً من هذا المعنى ابن تيمية في [مجموع الفتاوى : ١١/٦٧٢] ، إذ يقول :
[-- وَقَدْ يُقَالُ : كُلُّ مَنْ تَرَكَ الْإِيمَانَ وَالتَّوْحِيدَ فَلَا يَتْرُكُهُ إلَّا إلَى كُفْرٍ وَشِرْكٍ ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ إلَهٍ تَعْبُدُهُ ، فَمَنْ لَمْ يَعْبُدْ الرَّحْمَنَ عَبَدَ الشَّيْطَانَ . فَيُقَالُ : عِبَادَةُ الشَّيْطَانِ جِنْسٌ عَامٌّ ، وَهَذَا إذَا أَمَرَهُ أَنْ يَشْتَغِلَ بِمَا هُوَ مَانِعٌ لَهُ مِنْ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ يُقَالُ : عَبَدَهُ . كَمَا أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الشَّيْطَانَ فَقَدْ عَبَدَهُ ، وَلَكِنْ عِبَادَةٌ دُونَ عِبَادَةٍ . وَالنَّاسُ نَوْعَانِ : طُلَّابُ دِينٍ وَطُلَّابُ دُنْيَا . فَهُوَ يَأْمُرُ طُلَّابَ الدِّينِ بِالشِّرْكِ وَالْبِدْعَةِ كَعُبَّادِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ، وَيَأْمُرُ طُلَّابَ الدُّنْيَا بِالشَّهَوَاتِ الْبَدَنِيَّةِ --]

فبيّن – رحمه الله – أنّ من العبادة التي تُصرف لغير الله **U** ما هو عبادة دون عبادة ، أو بمعنى آخر : عبادة صغرى .

ودليل هذا التقسيم هو ما يلي :

١- قول النبي **r** فيما رواه عن ابن ماجة والإمام أحمد بسند حسن : « **مدمن الخمر كعابد وثن** » ، فشبّه النبي **r** تعلّق قلب مدمن الخمر بالخمر ، وانشغاله به ، والسعي فيه ، بحال عابد الوثن .

٢- قول النبي **r** في الصحيح : « **تعس عبد الدينار ، والدرهم ، والقطيفة ، والخميصة ؛ إن أعطي رضي ، وإن لم يعط لم يرض** » . فسماه عبداً لهذه الأمور إن كان يرضى عند العطاء ، ويسخط عند المنع ، وهذا لا يُخرج من الملّة حتى يكون شركاً أكبر .

٣- إطباق المفسّرين على تأويل قوله **Y** : **{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [يس : ٦٠]** . بأن المقصود به : لا تطيعوه في معصية الله . فلو كان هناك من حرج في تسمية الشرك الأصغر عبادة ، لكانوا جعلوا هذا المفهوم موقوفاً على الشرك الأكبر ، لا مجرّد المعصية . و لم يتشرطوا في هذا القول الاستحلال أو الكفر بالله **U** ، بل أطلقوا القول فيه بأنه الطاعة في المعصية .

٤- كون الشرك في الألوهية هو عبادة غير الله U ، أو العمل لغيره ؛ وكونه منقسماً إلى قسمين : أكبر وأصغر ، فهذا لا بد أن يعني أن العبادة تنقسم إلى كبرى وصغرى كذلك ؛ فما أوقع في الشرك الأكبر فهو عبادة كبرى ، وما أوقع في الأصغر فهو عبادة صغرى . وسيأتي بيان ذلك بشيء من التفصيل فيما بعد – بإذن الله – عند إيراد كلام العلماء في العبادة .

• فصل :

وقال شيخ الإسلام أيضاً في [مجموع الفتاوى : ٧/٧٢]:

[-- وَهَؤُلَاءِ مَنْ جِنْسِ مَانِعِ الزَّكَاةِ الَّذِي تَقَدَّمَ فِيهِ الْوَعِيدُ ، وَمِنْ جِنْسِ عَبْدِ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَمَّا أَحَبَّ الْمَالَ حُبًّا مَنَعَهُ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ صَارَ عَبْدًا لَهُ . وَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ ؛ فَيَكُونُ فِيهِ شِرْكٌ أَصْغَرُ ، وَلَهُمْ مِنْ الْوَعِيدِ بِحَسَبِ ذَلِكَ . وَفِي الْحَدِيثِ : « إنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ » . وَهَذَا مَبْسُوطٌ عِنْدَ النُّصُوصِ الَّتِي فِيهَا إطْلَاقُ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ الذُّنُوبِ --]

فلم يتحرج شيخ الإسلام من إطلاق وصف العبادة على الشرك الأصغر .

وقال أيضاً في [مجموع الفتاوى : ١٠/٢٦٢]:

[-- وَالشَّيْطَانُ يَأْمُرُ بالشرك وَالنَّفْسُ تُطِيعُهُ فِي ذَلِكَ ، فَلَا تَزَالُ النَّفْسُ تَلْتَفِتُ إلَى غَيْرِ اللَّهِ . إمَّا خَوْفًا مِنْهُ ، وَإِمَّا رَجَاءً لَهُ . فَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ مُفْتَقِرًا إلَى تَخْلِيصِ تَوْحِيدِهِ مِنْ شَوَائِبِ الشِّرْكِ . وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ وَغَيْرُهُ عَنْ النَّبِيِّ r أَنَّهُ قَالَ : « يَقُولُ الشَّيْطَانُ : أَهْلَكْتُ النَّاسَ بالذُّنُوب وَأَهْلَكُونِي بلَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَالِاسْتِغْفَارِ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ بَثَثْتُ فِيهِمْ الْأَهْوَاءَ ، فَهُمْ يُذْنِبُونَ وَلَا يَسْتَغْفِرُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا » . فَصَاحِبُ الْهَوَى الَّذِي اتَّبَعَ هَوَاهُ بغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ ، لَهُ نَصِيبٌ مِمَّنْ اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ ، فَصَارَ فِيهِ شِرْكٌ مَنَعَهُ مِنْ الِاسْتِغْفَارِ ، وَأَمَّا مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ وَالِاسْتِغْفَارَ فَلَا بُدَّ أَنْ يُرْفَعَ عَنْهُ الشَّرُّ ؛ فَلِهَذَا قَالَ ذُو النُّونِ : { لَا إلَهَ إلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } . وَلِهَذَا يَقْرِنُ اللَّهُ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ --]

وشيخ الإسلام يتكلم هنا عن أحوال المسلمين مع الذنوب والمعاصي ، ولاحظ كيف أنه جعل من اتبع هواه في ذلك له نصيب ممن اتخذ إلهه هواه .

وذكر الرازي في تفسيره عند قوله - تعالى - : { **أن لا تعبدوا الشيطان** } :

[- - فمن الناس من يرتكب جريمة كارهاً بقلبه لما يقترف من ذنبه ، مستغفراً لربه ، يعترف بسوء ما يقترف فهو عبادة الشيطان بالأعضاء الظاهرة ، ومنهم من يرتكبها وقلبه طيب ولسانه رطب ، كما أنك تجد كثيراً من الناس يفرح بكون متردداً إلى أبواب الظلمة للسعاية ، ويعد من المحاسن كونه سارياً مع الملوك ويفتخر به بلسانه ، وتجدهم يفرحون بكونهم آمرين الملك بالظلم والملك ينقاد لهم ، أو يفرحون بكونه يأمرهم بالظلم فيظلمون ، فرحين بما ورد عليهم من الأمر . إذا عرفت هذا : فالطاعة التي بالأعضاء الظاهرة ، والبواطن طاهرة : مُكفَّرَة بالأسقام والآلام ، كما ورد في الأخبار - -]

مع كونه يسميها عبادة للشيطان ، إلا أنه يقول إنّ الله يكفّرها بالأسقام والآلام ، بمعى أنها لا تُخرج من الإسلام .

فكون فعل ما عبادة ، لا يعني صرفها لغير الله I الخروج من الدين ، حتى يتحقق في قلبه أصل الخضوع المطلق لمن صرف له هذه العبادة ، والذي لا يتحقق إلا باعتقاد الربوبية في المعبود ؛ وأمثلة ذلك كثيرة .

فمن أدى به حبه لشيء إلى معصية الله I ، مع اعتقاد بطلان ما هو عليه ، واستحقاقه للعقوبة وغضب الله U ، فقد وقع في الشرك الأصغر ، كما نقلنا عن شيخ الإسلام قوله في البخيل بماله ، وعن الرازي في تفسيره .. وإن أدى به إلى الكفر بالله U ، فقد وقع في الشرك الأكبر ، إذ أن ذلك يستلزم قطعاً محبة هذا الشيء أشد من محبة الله I ، حتى آثره على الإيمان به ، والحب عبادة .

وما الذي فرّق بين النوعين وهما من جنس واحد ؟ إنما هو الاعتقاد ، الذي حدد درجة الحب ودرجة الخضوع للمحبوب .

وكذلك يُقال في التوكل مثلاً .. فمن توكّل على الأسباب ، معتقداً أنها لا تنفع ولا تضر إلا بإذن الله U ، فقد وقع في الشرك الأصغر ، كحال المتطيّر والمتشائم ، والمتعلّق تميمة أو تولة وغير ذلك .. ومن توكل عليها معتقداً أنها تنفع وتضر بذاتها ، دون إذن الله ، فقد وقع في الشرك الأكبر .

ما الذي فرّق بين النوعين وهما من جنس واحد ؟ إنما هو الاعتقاد ، فهو ما يتحدد به درجة التوكل على هذا السبب .

وكذلك الطاعة .. فمن أطاع شخصاً في الكفر بالله ، فقد وقع في الشرك الأكبر ، ومن أطاعه في المعاصي ، فقد وقع في الشرك الأصغر ، وتفصيل ذلك في الباب اللاحق ، بإذن الله .

هذا ، مع كون الفعل واحد ، وهو الطاعة في معصية الله ، إلا أنه قد جُعل نوعين بحسب المعتقد .

وهكذا يُقال في جميع مظاهر العبادة وأفرادها .

والمقصود بمظاهر العبادة : كل ما يحبه الله I ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة ، واللازمة والمتعدية .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في [مجموع الفتاوى : ١٠/١٤٩-١٥٠]:
[-- الْعِبَادَةُ : هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ ، مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ ، الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ . فَالصَّلَاةُ ، وَالزَّكَاةُ ، وَالصِّيَامُ ، وَالْحَجُّ ، وَصِدْقُ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ ، وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ ، وَالْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ ، وَالْجِهَادُ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ ، وَالْإِحْسَانُ إلَى الْجَارِ ، وَالْيَتِيمِ ، وَالْمِسْكِينِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَالْمَمْلُوكِ مِنْ الْآدَمِيِّينَ ، وَالْبَهَائِمِ ، وَالدُّعَاءِ ، وَالذِّكْرِ وَالْقِرَاءَةِ ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ ؛ مِنْ الْعِبَادَةِ . وَكَذَلِكَ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَخَشْيَةُ اللَّهِ ، وَالْإِنَابَةُ إلَيْهِ ، وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ ، وَالصَّبْرُ لِحُكْمِهِ ، وَالشُّكْرُ لِنِعَمِهِ ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ ؛ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ ؛ وَالرَّجَاءُ لِرَحْمَتِهِ ، وَالْخَوْفُ لِعَذَابِهِ ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ : هِيَ مِنْ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ --]

فهذه بعض من أنواع العبادة .. وكونها عبادة لا يعني صرفها لغير الله أن تكون شركاً أكبر في جميع الأحوال ، اللهم إلا إن كانت عبادة توقيفية تؤدى بحركات وشعائر وطقوس وأذكار معيّنة ، كالصلاة .

فمن قام بالصلاة بواجباتها وأركانها وأذكارها لغير الله I ، كما يؤديها لله ، فيقول في معبوده : سبحان ربي العظيم ، وسمع الله لمن حمده ، وما إلى ذلك من الأذكار ، ويحدد لذلك شعائر وحركات لا ينبغي الخروج عنها ، مع ما يصاحب ذلك من خشوع وخضوع وسكون ، فهذا لا شك في خروجه من الدين ، ولا يشك في ذلك عاقل ، بل إن الفطرة لتعلم أن هذا شرك أكبر بهذه الصورة والحال ، حيث لا يُمكن أن تؤدّى إلا لمن يُعتقد فيه الربوبية .

أما غير ذلك ، كالسجود لغير الله I ، فهو بحسب اعتقاد فاعله .

يقول الإمام الشوكاني – رحمه الله – في [السيل الجرار : ٤/٥٨٠]:
[-- أما قوله : (ومنها السجود لغير الله) : فلا بد من تقييده بأن يكون سجوده هذا قاصداً لربوبية من سجد له ، فإنه بهذا السجود قد أشرك بالله U وأثبت معه إلهاً آخر . وأما إذا لم يقصد إلا مجرد التعظيم ، كما يقع كثيراً لمن دخل على ملوك الأعاجم ، أنه يقبل الأرض تعظيماً له ، فليس هذا من الكفر في شيء ، وقد علم كل من كان من الأعلام أن التكفير بالإلزام من أعظم مزالق الأقدام ، فمن أراد المخاطرة بدينه فعلى نفسه تجنى براقش --]

وكذلك ذكر الحافظ الذهبي – رحمه الله – في [معجم الشيوخ : ١/٧٣-٧٤]:
[-- ألا ترى الصحابة في فرط حبهم للنبي r قالوا : ألا نسجد لك ؟ فقال : لا ، فلو أذن لهم لسجدوا له سجود إجلال وتوقير لا سجود عبادة ، كما قد سجد إخوة يوسف u ليوسف . وكذلك القول في سجود المسلم لقبر النبي r على سبيل التعظيم والتبجيل ، لا يُكفّر به أصلاً ، بل يكون عاصياً ، فليُعرّف أن هذا منهي عنه ، وكذلك الصلاة إلى القبر --]

هذا ، والملائكة سجدت لآدم u ، وخرّ إخوة يوسف u له سجّداً ، ولم يستلزم هذا حقيقة عبادة القلب ، ولكن حيث صار هذا الفعل حراماً في شريعتنا ، صار المخالف لأمر الله بهذا الفعل واقعاً في

الشرك الأصغر باعتبار عصيان الله I .. فعُلم أنه لا يلزم من مظهر العبادة حقيقتها ، ولكن العكس صحيح .

ولعّل موضع الالتباس عند البعض هو في ربطهم لعبادة الجوارح بعبادة القلب إلزاماً لا ينفك .. كما يربطون بين الكفر العملي وكفر القلب .. فقالوا : الخارج من الدين بعمله ، خارج منه بقلبه .. إذ أن الظاهر والباطن متلازمان .. وقالوا الشيء نفسه في العبادة ، فخلطوا كثيراً .

فهل استلزم سجود الملائكة لآدم u حقيقة العبادة في القلب ؟؟ وهل استلزم سجود إخوة يوسف u له حقيقة العبادة في القلب ؟؟ هذا مع التنويه هنا إلى أن مذهب أهل السنة والجماعة هو القول بتلازم الظاهر والباطن . فلو كان السجود يلزم منه قطعاً قيام حقيقة العبادة في القلب ، لما صحّ صرفها بحال إلى غير الله U في أيّ وقت . مع كون السجود أصلاً عبادة منذ أن خلق الله I الخلق ..

قال الله - تعالى - : { **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً** } [مريم : ٥٨]

ما الذي فرّق بين النوعين سوى الاعتقاد ؟

وكذلك في الحلف بالله .. يقول الرسول r في الحديث الصحيح : « **احلفوا بالله ، وبروا واصدقوا ؛ فإن الله يحب أن يحلف به** » .. وهو على نوعين كما هو معلوم .

• التحرير في مسألة شرك الطاعة

العبادة هي الطاعة ، كما ذكر ابن تيمية عن سعيد ابن جبير – رحمه الله – في [مجموع الفتاوى : ٧/٢٩٥]:

[-- وَتَسْأَلُ عَنْ الْعِبَادَةِ ، وَالْعِبَادَةُ هِيَ الطَّاعَةُ ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ وَفِيمَا نَهَاهُ عَنْهُ فَقَدْ آثَرَ عِبَادَةَ اللَّهِ ؛ وَمَنْ أَطَاعَ الشَّيْطَانَ فِي دِينِهِ وَعَمَلِهِ فَقَدْ عَبَدَ الشَّيْطَانَ . أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ فَرَّطُوا : { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ } وَإِنَّمَا كَانَتْ عِبَادَتُهُمْ الشَّيْطَانَ أَنَّهُمْ أَطَاعُوهُ فِي دِينِهِمْ --]

وقال الرازي في [مفاتيح الغيب : ٤٣١/١٢]:

[-- وقالوا : { بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن } أي كانوا ينقادون لأمر الجن ، فهم في الحقيقة كانوا يعبدون الجن ، ونحن كنا كالقبلة لهم ، لأن العبادة هي الطاعة --]

والحق في ذلك أن يُقال : إن طاعة القلب وانقياده لله I ، بأن يُصّدق خبره ، ويعتقد ربوبيته ، دون جحود أو إنكار ، ويلتزم أمره ، فذلك هو حقيقة العبادة .

يقول ابن القيم – رحمه الله – في [كتاب الصلاة : ٢٥]:

[-- فإنه يلزم من عدم طاعة القلب : عدم طاعة الجوارح ؛ إذ لو أطاع القلب وانقاد : أطاعت الجوارح وانقادت . ويلزم من عدم طاعته وانقياده : عدم التصديق المستلزم للطاعة ، وهو حقيقة الإيمان . فإن الإيمان ليس مجرد التصديق - كما تقدم بيانه - ، وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد --]

فمن أطاع الله U في ما أمر به ؛ من نبذ كل معبود سواه ، والبراءة من كل دين سوى الإسلام ، وأطاعه في التوكل عليه والخوف منه ومحبته ، وما إلى ذلك من الأحوال القلبية ، ثم أظهر مقتضى ذلك على جوارحه ، فقد حصل له حقيقة العبادة والإيمان . ومظاهر الطاعة لا بد لها من مُحرّك قلبي وجداني يوجبها ، ولا يُعقل أن يُطيع امرؤ شخصاً ما ، وليس في قلبه دافع لطاعته ، سواء من محبة ، أو خوف أو غير ذلك .

لذلك ، كانت طاعة الشيطان في معصية الله U شركاً أصغر ، وعبادة صغرى للشيطان ، وإن كانت في الكفر به I ، كانت شركاً أكبر في الله ، وعبادة كبرى للشيطان ؛ لأن هذه الطاعة إنما اقتضاها موجِب ودافع قلبي تجاه المطاع من دون الله ، فبحسب هذا الموجِب كان العمل .

وقد نقلنا قول ابن ابن تيمية في [مجموع الفتاوى : ٦٧٢/١١] ما نصه :

[-- وَقَدْ يُقَالُ : كُلُّ مَنْ تَرَكَ الْإِيمَانَ وَالتَّوْحِيدَ فَلَا يَتْرُكُهُ إلَّا إلَى كُفْرٍ وَشِرْكٍ ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ إلَهٍ تَعْبُدُهُ ، فَمَنْ لَمْ يَعْبُدْ الرَّحْمَنَ عَبَدَ الشَّيْطَانَ . فَيُقَالُ : عِبَادَةُ الشَّيْطَانِ جِنْسٌ عَامٌّ ، وَهَذَا إذَا أَمَرَهُ أَنْ يَشْتَغِلَ بِمَا هُوَ مَانِعٌ لَهُ مِنْ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ يُقَالُ : عَبَدَهُ . كَمَا أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الشَّيْطَانَ فَقَدْ عَبَدَهُ ، وَلَكِنْ عِبَادَةٌ دُونَ عِبَادَةٍ . وَالنَّاسُ نَوْعَانِ : طُلَّابُ دِينٍ وَطُلَّابُ دُنْيَا . فَهُوَ يَأْمُرُ طُلَّابَ الدِّينِ بِالشِّرْكِ وَالْبِدْعَةِ كَعُبَّادِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ، وَيَأْمُرُ طُلَّابَ الدُّنْيَا بِالشَّهَوَاتِ الْبَدَنِيَّةِ --]

وجاء في تفسير الرازي عند قوله تعالى : **{ لا تعبدوا الشيطان }** :

[-- قوله : { لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان } معناه لا تطيعوه ، بدليل أن المنهي عنه ليس هو السجود له فحسب ، بل الانقياد لأمره والطاعة له ، فالطاعة عبادة ، لا يقال فنكون نحن مأمورين بعبادة الأمراء حيث أمرنا بطاعتهم في قوله تعالى : { أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول وَأُوْلِي الأمر مِنْكُمْ } [النساء : ٥٩] لأنا نقول طاعتهم إذا كانت بأمر الله ، لا تكون إلا عبادة لله وطاعة له ، وكيف لا ونفس السجود والركوع للغير إذا كان بأمر الله لا يكون إلا عبادة لله ، ألا ترى أن الملائكة سجدوا لآدم ولم يكن ذلك إلا عبادة لله ، وإنما عبادة الأمراء هو طاعتهم فيما لم يأذن الله فيه ، فإن قيل بماذا تعلم طاعة الشيطان من طاعة الرحمن ، مع أنا لا نسمع من الشيطان خبراً ولا نرى منه أثراً ؟ نقول : عبادة الشيطان في مخالفة أمر الله ، أو الإتيان بما أمر الله ، لا لأنه أمر به ، ففي بعض الأوقات يكون الشيطان يأمرك وهو في غيرك ، وفي بعض الأوقات يأمرك وهو فيك ، فإذا جاءك شخص يأمرك بشيء ، فانظر إن كان ذلك موافقاً لأمر الله أو ليس موافقاً ، فإن لم يكن موافقاً فذلك الشخص معه الشيطان يأمرك بما يأمرك به ، فإن أطعته فقد عبدت الشيطان ، وإن دعتك نفسك إلى فعل فانظر : أهو مأذون فيه من جهة الشرع أو ليس كذلك ، فإن لم يكن مأذوناً فيه فنفسك هي الشيطان ، أو معها الشيطان يدعوك ، فإن اتبعته فقد عبدته ، ثم إن الشيطان يأمر أولاً بمخالفة الله ظاهراً ، فمن أطاعه فقد عبده ومن لم يطعه فلا يرجع عنه ، بل يقول له أعبد الله كي لا تهان ، وليرتفع عند الناس شأنك ، وينتفع بك إخوانك وأعوانك ، فإن أجاب إليه فقد عبده . لكن عبادة الشيطان على تفاوت ، وذلك لأن الأعمال منها ما يقع والعامل موافق فيه جنانه ولسانه وأركانه ، ومنها ما يقع والجنان واللسان مخالف للجوارح أو للأركان ، فمن الناس من يرتكب جريمة كارهاً بقلبه لما يقترف من ذنبه ، مستغفراً لربه ، يعترف بسوء ما يقترف ، فهو عبادة الشيطان بالأعضاء الظاهرة ، ومنهم من يرتكبها وقلبه طيب ولسانه رطب ، كما أنك تجد كثيراً من الناس يفرح بكون متردداً إلى أبواب الظلمة للسعاية ، ويعد من المحاسن كونه سارياً مع الملوك ويفتخر به بلسانه ، وتجدهم يفرحون بكونهم آمرين الملك بالظلم والملك ينقاد لهم ، أو يفرحون بكونه

يأمرهم بالظلم فيظلمون ، فرحين بما ورد عليهم من الأمر ، إذا عرفت هذا فالطاعة التي بالأعضاء الظاهرة ، والبواطن طاهرة : مكفَّرة بالأسقام والآلام ، كما ورد في الأخبار - -]

انظر إلى تنويعه في الطاعة ، فهي وإن كانت عبادة ، فإن ما يحدد درجتها هو الاعتقاد ؛ وبنحو ذلك قال سائل أئمة التفسير عند قوله – تعالى - : **{ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ }** **[يس : ٦٠]**

وقال ابن رجب الحنبلي – رحمه الله – في [كتاب التوحيد (رسالة كلمة الإخلاص)]:
[- - وتحقيق هذا المعنى وإيضاحه أن قول العبد : "لا إله إلا الله" يقتضي ألاّ إله له غير الله ، الإله الذي يُطاع فلا يُعصى ، هيبةً له وإجلالاً ، ومحبةً وخوفاً ورجاءً ، وتوكلاً عليه ، وسؤالاً منه ، ودعاءً له ، ولا يصلح ذلك كله إلا لله U ، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول "لا إله إلا الله" ، ونقصاً في توحيده ، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك . وهذا كله من فروع الشرك ، ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك على كثير من المعاصي التي منشؤها من طاعة غير الله ، أو خوفه ، أو رجائه ، أو التوكل عليه والعمل لأجله . كما ورد في إطلاق الشرك على الرياء ، وعلى الحلف بغير الله ، وعلى التوكل على غير الله ، والاعتماد عليه ، وعلى من سَوَّى بين الله وبين المخلوق في المشيئة ، مثل أن يقول : ما شاء الله وشاء فلان ، وكذا قوله : ما لي إلا الله وأنت .

وكذلك ما يقدح في التوكل وتفرُّد الله بالنفع والضر ، كالطيرة والرقى المكروهة ، وإتيان الكهان ، وتصديقهم بما يقولون ، وكذلك اتباع هوى النفس فيما نهى الله عنه : قادح في تمام التوحيد وكماله ؛ ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التي منشؤها من اتباع هوى النفس بما هو كفر وشرك ، كقتال المسلم ، ومن أتى حائضاً أو امرأة في دبرها ، ومن شرب الخمر في المرة الرابعة ، وإن كان ذلك لا يخرجه عن الملة بالكلية . ولهذا قال السلف : كفر دون كفر ، وشرك دون شرك ، وقد ورد إطلاق الإله على الهوى المتبع .

قال – تعالى - : { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ } . وقال الحسن : (هو الذي لا يهوى شيئاً إلا ركبه) ، وقال قتادة : (هو الذي كلما هوى شيئاً ركبه ، وكلما اشتهى شيئاً أتاه ، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى) .

وروي من حديث أبي أمامة مرفوعاً بإسناد ضعيف : « ما تحت ظل السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متّبع » . وفي حديث آخر : « لا تزال "لا إله إلا الله" تدفع عن أصحابها ، حتى يؤثروا دنياهم على دينهم ، فإذا فعلوا ذلك رُدَّت عليهم ، وقيل لهم : كذبتم » . ويشهد لذلك الحديث الصحيح عن النبي r : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شِيكَ فلا انتُقِش »

فدل هذا على أن كل من أحب شيئاً وأطاعه ، وكان غاية قصده ومطلوبه ، ووالى لأجله ، وعادى لأجله : فهو عبده ، وذلك الشيء : معبوده وإلهه .

ويدل عليه أيضًا : أنّ الله – تعالى - سَمَّى طاعة الشيطان في معصيةٍ : عبادةً للشيطان ، كما قال - تعالى - : { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ } . وقال حاكياً عن خليله إبراهيم أنه قال لأبيه : {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا } .

فمن لم يحقق عبودية الرحمن وطاعته ، فإنه يعبد الشيطان بطاعته له ، ولم يخْلُص من عبادة الشيطان إلا من أخلص عبودية الرحمن ، وهم الذين قال فيهم : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } . فهم الذين حققوا قول "لا إله إلا الله" ، وأخلصوا في قولها ، وصدقوا قولهم بفعلهم ، فلم يلتفتوا إلى غير الله ، محبة ورجاء ، وخشية وطاعة وتوكلاً ، وهم الذين صدقوا في قول : "لا إله إلا الله" ، وهم عباد الله حقاً .

فأما من قال : "لا إله إلا الله" بلسانه ، ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية الله ومخالفته ، فقد كَذّب فعله قوله ، ونقص من كمال توحيده بقدر معصية الله في طاعة الشيطان والهوى ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟!

{ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ }

فيا هذا ، كن عبد الله لا عبد الهوى ؛ فإن الهوى يهوى بصاحبه في النار ؛ { أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } .

تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ؛ والله ما ينجو غدًا من عذاب الله إلا من حقق عبودية الله وحده ، ولم يلتفت معه إلى شيء من الأغيار .

من علم أن إلهه ومعبوده فرد فليفرده بالعبودية ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا - -]

فالمعاصي بجميع أنواعها هي شرك ، لأنها طاعة للشيطان .

قال ابن تيمية – رحمه الله – في [مجموع الفتاوى : ١٥/٤٤١]:
[- - فَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ : التَّوْحِيدُ ، وَهِيَ كَالشَّجَرَةِ ؛ وَالْأَعْمَالُ ثِمَارُهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ . وَكَذَلِكَ السَّيِّئَةُ ، هِيَ الْعَمَلُ لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ حَارِثٌ هَمَّامٌ ، لَا بُدَّ لَهُ مِنْ عَمَلٍ ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَقْصُودٍ يَعْمَلُ لِأَجْلِهِ . وَإِنْ عَمِلَ لِلَّهِ وَلِغَيْرِهِ فَهُوَ شِرْكٌ . وَالذُّنُوبُ مِنْ الشِّرْكِ ، فَإِنَّهَا طَاعَةٌ لِلشَّيْطَانِ . قَالَ : { إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ } الْآيَةَ . وَقَالَ : { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ } الْآيَةَ . وَفِي الْحَدِيثِ : « وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ » . لَكِنْ إذَا كَانَ مُوَحِّدًا وَفِعْلُ بَعْضِ الذُّنُوبِ : نَقْصُ تَوْحِيدِهِ ، كَمَا قَالَ : « لَا يَزْنِي الزَّانِي » إلَخْ . وَمَنْ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ فَلَيْسَ بِمُخْلِصٍ ؛ وَفِي الْحَدِيثِ : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ » إلَخْ . وَحَدِيثُ أَبِي بَكْرٍ : « قُلْ : اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِك أَنْ أُشْرِكَ بِك شَيْئًا وَأَنَا أَعْلَمُ » إلَخْ ؛ لَكِنْ إذَا لَمْ يَعْدِلْ بِاَللَّهِ غَيْرَهُ ، فَيُحِبُّهُ مِثْلَ حُبِّ اللَّهِ ، بَلْ اللَّهُ أَحَبُّ إلَيْهِ وَأَخْوَفُ عِنْدَهُ وَأَرْجَى مِنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ ، فَقَدْ خَلَصَ مِنْ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ - -]

ومن الطاعة المكفّرة المخرجة من الدين ما ذكره الله ‌ا : { اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [التوبة : ٣١]

فإنهم عندما أطاعوهم **بقلوبهم** في خلاف أمر الله ▌ ، فقد عبدوهم وخرجوا من الدين .. قال ابن تيمية في [مجموع الفتاوى : ٧/٧٠]:

[-- وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا - حَيْثُ أَطَاعُوهُمْ فِي تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَتَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ - يَكُونُونَ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ بَدَّلُوا دِينَ اللَّهِ ، فَيَتْبَعُونَهُمْ عَلَى التَّبْدِيلِ ؛ فَيَعْتَقِدُونَ تَحْلِيلَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، وَتَحْرِيمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ ، اتِّبَاعًا لِرُؤَسَائِهِمْ ، مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ خَالَفُوا دِينَ الرُّسُلِ : فَهَذَا كُفْرٌ ، وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ شِرْكًا - وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا يُصَلُّونَ لَهُمْ وَيَسْجُدُونَ لَهُمْ - فَكَانَ مَنْ اتَّبَعَ غَيْرَهُ فِي خِلَافِ الدِّينِ ، مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ خِلَافُ الدِّينِ ، وَاعْتَقَدَ مَا قَالَهُ ذَلِكَ دُونَ مَا قَالَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؛ مُشْرِكًا مِثْلَ هَؤُلَاءِ .

وَالثَّانِي : أَنْ يَكُونَ اعْتِقَادُهُمْ وَإِيمَانُهُمْ بِتَحْلِيلِ الْحَلَالِ ، وَتَحْرِيمِ الْحَرَامِ ثَابِتًا ، لَكِنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، كَمَا يَفْعَلُ الْمُسْلِمُ مَا يَفْعَلُهُ مِنْ الْمَعَاصِي الَّتِي يَعْتَقِدُ أَنَّهَا مَعَاصٍ ؛ فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ حُكْمُ أَمْثَالِهِمْ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ --]

ومثل ذلك في قوله ▌ : { **وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ** } **[الأنعام : ١٢١]**

فالطاعة في الكفر - وهو هنا : تحليل ما حرّم الله - هو شرك أكبر ، وهو عبادة لمن أطاعه في ذلك .

ويُلاحظ في هذه المسألة أنه لا يُشترط أن يقوم في قلب العابد لغير الله غاية الذل وغاية الحب للمحبوب حتى يُقال إنه قد أشرك . بل ولا يُشترط أصلاً أن يقوم في قلبه حب أو ذل للمعبود من دون الله . يكفي أنه أطاعه في الكفر حتى يُقال إنه قد عبد غير الله .

إذ أنّ من أطاع الأحبار والرهبان من دون الله ، بأن استحسنوا واستصوبوا رأيهم على كلام الله ، هؤلاء لا يلزم أن يُحبوا هؤلاء الأحبار أو يذلوا لهم ليحقّ فيهم وصف العبادة .

وكذلك من استحسن رأي المشركين في تحليل الميتة ، قد يكون يبغضه ويحقره ، إلا أن مجرّد استصواب رأيه وتقديمه على أمر الله ، هو عبادة لغير الله I .

فكل معصية هي شرك بهذا الاعتبار ، اعتبار طاعة الشيطان أو الهوى ، إما أن تكون شركاً أصغر ، وإما أن تكون شركاً أكبر .

فطاعة الشيطان في الكفر بالله I ، هي عبادة للشيطان ، إذ أنها تقديم لأمر الشيطان وحكمه ، على أمر الله U وحكمه ؛ وهذا هو عيْن الشرك ، الذي هو اتخاذ الأنداد مع الله Y . فإن ذلك الشخص اتخذ الشيطان ندّاً لله في الطاعة .

قال الشيخ أبابطين – رحمه الله – في [الدرر السنية : ١٢/١١٨]:

[- - ومن أطاع الشيطان في نوع من أنواع الكفر فقد عبده ، لا تختص عبادة الشيطان بنوع الشرك ، لقوله – تعالى - : { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } [سورة يس آية: ٦٠] ، أي : لا تطيعوه ؛ فعبادته طاعته .

يوضح ذلك تفسير النبي r لقول الله – تعالى - : { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ } [سورة التوبة آية: ٣١] الآية ، أنه طاعتهم في التحريم والتحليل ، فسمى الله ذلك شركاً ، وعبادة منهم للأحبار والرهبان - -]

وقال أيضاً في [الدرر السنية : ١٢/١٣٢]:

[- - وقول النبي r : « إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون » ، معناه : أنه يئس أن يطيعه المصلون في الكفر بجميع أنواعه ، لأن طاعته في ذلك هي عبادته ، قال – تعالى - : { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ } [سورة يس آية: ٦٠] - -]

ومما يدل على أن الطاعة في الكفر هي شرك أكبر : قول النبي r في تارك الصلاة : « **العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر** » ؛ وقوله في حديث آخر : « **بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة** » ؛ وقوله في آخر : « **ليس بين العبد والشرك إلا ترك الصلاة ؛ فإذا تركها فقد أشرك** » ؛ وأيضاً : « **بين العبد وبين الكفر والإيمان الصلاة ؛ فإذا تركها فقد أشرك** » .

مع أن ترك الصلاة مجرّداً ليس شركاً ، لكنه باعتبار طاعة الشيطان ، يكون شركاً ؛ إذ طاعة الشيطان في الكفر هو شرك .. وهذه المسألة مبسوطة في غير هذا الموضع في رسالة مستقلة .

فخلاصة القول أنّ الشرك الأكبر يعني مساواة الخالق بالمخلوق ، ولا يكون الفعل مُكفّراً حتى يكون كذلك .

ومصداق هذا قوله – تعالى - : { **الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ** } **[الأنعام : ١]**

وقوله – تعالى - : { **قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (*) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (*) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ** } **[الشعراء : ٩٦-٩٨]**

قال ابن تيمية – رحمه الله – في [مجموع الفتاوى : ١/٩١-٩٢]:
[-- فإذا تقرر هذا ، فالشرك - إن كان شركاً يكفر به صاحبه - هو نوعان : شرك في الإلهية ، وشرك في الربوبية . فأما الشرك في الإلهية فهو أن يجعل لله نداً - أي : مثلاً - في عبادته ، أو محبته ، أو خوفه ، أو رجائه ، أو إنابته ، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه ..[إلى أن قال]**.. وما اعتقد أحد منهم قط أن الأصنام هي التي تنزل الغيث ، وترزق العالم وتدبره ، وإنما كان شركهم كما ذكرنا أن اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، وهذا المعنى يدل على أن من أحب شيئاً من دون الله كما يحب الله - تعالى - فقد أشرك ، وهذا كقوله : { قالوا وهم فيها يختصمون (*) تالله إن كنا لفي ضلال مبين (*) إذ نسويكم برب العالمين } . وكذا من خاف أحداً كما يخاف الله ، أو رجاه كما يرجو الله ، وما أشبه ذلك . وأما النوع الثاني**

: فالشرك في الربوبية ، فإن الرب - سبحانه - هو المالك ، المدبر ، المعطي ، المانع ، الضار ، النافع ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ؛ فمن شهد أن المعطي ، أو المانع ، أو الضار ، أو النافع ، أو المعز ، أو المذل غيره : فقد أشرك بربوبيته --]

وقال أيضاً في [مجموع الفتاوى : ٣٣٩/٢٧]:

[-- فَمَنْ سَوَّى بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ فِي الْحُبِّ لَهُ ، أَوْ الْخَوْفِ مِنْهُ ، وَالرَّجَاءِ لَهُ ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ --]

فيجب أن يتساوى الشريك مع الله U في معتقد المشرك ، ولو بوجه من الوجوه ، حتى نقول إنه قد أشرك .

مع ملاحظة أنه لا يُمكن أن يعبد المرء أحداً من دون الله ، فيساويه به U ، حتى يقوم في قلبه موجِب هذه العبادة التي ضاهى بها الشريكَ بالله U ، وهذا الموجِب هو : اعتقاد ربوبية هذا الشريك ، أي : استحقاق هذا الشريك لهذا الحبّ الذي ضاهاه به المشرك بالله Y ، واستحقاق العبادة هو ربوبية ، كما بيّنا .

فخوف كالخوف من الله I لا يكون إلا إن اعتقد المشرك في شريكه القدرة على إنفاذ ما يخافه ، دون إذن الله - تعالى - ، **بحيث لا يُرجع أمر هذا الضرر المخوف إلى الله ، بل يُرجع الأمر كله في هذا الشأن الذي يخافه إلى هذا الشريك ، دون تدخل من الله I** . فتكون القدرة على الإضرار ذاتيّة في هذا الشيء ، غير معلّقة بمشيئة الله وأمره . فإنه لو أرجع هذا الأمر لله U ، لكان حقيقة الخوف هو من الله ، لأنه من قدّره وأذن به . لذلك فإن المؤمن إن خاف شيئاً رجع إلى الله U ، كما قال - تعالى - : **{ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } [آل عمران : ١٧٣] .**

فالموحّد يعتقد أنه لا قادر ولا فاعل ولا مؤثّر إلا بإذن الله I وتقديره ، ومن أخرج بعض المخلوقات عن ذلك ، فقد أشرك بالله الشرك الأكبر .

ومحبة كالمحبة لله I لا تكون إلا إن اعتقد المشرك في معبوده ما يوجب هذه المحبة من صفات الربوبية ، كأن يحبّه لأنه يُبرئ الأسقام من نفسه (أي : بذاته ، دون شأن من الله U) ، دون إرجاع هذه القدرة إلى الله U ، بحيث يكون هو من قدّرها ، وبيده وحده أمرها . أو يعتقد في هذا الشريك القدرة الذاتية في دفع البلاء ، أو جلب النفع ، وما إلى ذلك . فيحبّه لذاته ، فيوالي ويعادي عليه ، ويسعى في رضاه وإن كان في غضب الله U ، فلا يكترث لأي شيء إلا إرضائه ، وإن كان الكفر بالله U ، لأنه – باعتقاد هذا المشرك - هو صاحب هذه القدرة أو الصفة التي لم تُهب من الله U إليه ، فلا شأن لله بها I ، فلأي شيء يبالي عندها إلا بطاعة هذا الشريك ، وإن كان في معصية الله ؟

فمن اعتقد أن مخلوقاً له صفة قائمة بذاته ، فإنه سيجعل غاية مقصده ومنتهاه هو رضى هذا الشريك في هذا الأمر ، فلا يكترث بأحد إلا به ، طمعاً في ما قد يحوزه من هذا الشريك . فيستحوذ ذلك على قلبه وعقله وروحه ، فيكون عبداً له ، لا همّ له إلا رضاه .

فمعنى الحبّ للذات إذاً : أن يجعل في شريكه صفة قائمة بذاته ، يُحبه عليها ، ويعتقد أنها لم تُهب له ، بل هي من موجبات ذاته ، لم يهبها الله U له . فالله I عندئذ لا يستحق الشكر أو الفضل على ذلك ، فيُكفر ولا يُشكر ، ويُعصى ولا يُطاع ، بحسب اعتقاد هذا المشرك ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في [مجموع الفتاوى : ٢/٤٢٤-٤٢٥]:
[- - فَالشَّيْءُ الْمَقْصُودُ لِأَمْرِ : هُوَ بَاطِلٌ مُنْتَفٍ ، إذَا انْتَفَتْ فَائِدَتُهُ وَمَقْصُودُهُ . فَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْبُودًا ، وَلَا مُسْتَعَانًا ؛ فَقَدْ انْتَفَى مِمَّا سِوَى اللَّهِ هَذَا الْمَعْنَى الْمَقْصُودُ ، فَهُوَ بَاطِلٌ . وَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ : لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صَمَدًا مَقْصُودًا ، وَلَا مَعْبُودًا ، وَلَا فَائِدَةَ فِي قَصْدِهِ ، وَلَا مَنْفَعَةَ فِي عِبَادَتِهِ وَاسْتِعَانَتِهِ ؛ فَهُوَ بَاطِلٌ . وَهَذَا وَاضِحٌ ، وَهَذَا عُمُومٌ مَحْفُوظٌ ، لَا يُسْتَثْنَى مِنْهُ شَيْءٌ . وَبَيَانُ ذَلِكَ : أَنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ فَإِمَّا أَنْ يُقْصَدَ لِنَفْسِهِ ، وَإِمَّا أَنْ يُقْصَدَ لِغَيْرِهِ . فَالْمَقْصُودُ لِغَيْرِهِ : مِثْلَ مَا يُقْصَدُ الْخُبْزُ لِلْأَكْلِ ، وَالثَّوْبُ لِلُّبْسِ ، وَالسِّلَاحُ لِلدَّفْعِ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ ؛ وَهُوَ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ لِنَفْعِ بَنِي آدَمَ مِنْ الْأَعْيَانِ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ إنَّمَا تُقْصَدُ لِغَيْرِهَا لَا لِذَاتِهَا . وَكَذَلِكَ الْمَالُ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ جَلْبُ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعُ مَضَرَّةٍ ، إنَّمَا يُقْصَدُ لِغَيْرِهِ لَا لِنَفْسِهِ ، وَكُلُّ مَا قُصِدَ لِغَيْرِهِ فَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ فِي الْحَقِيقَةِ ذَلِكَ الْغَيْرُ . وَهَذَا مُرَادٌ لَهُ ، بِحَيْثُ إنْ حَصَلَ ذَلِكَ الْغَيْرُ الْمَقْصُودُ لِنَفْسِهِ ، وَإِلَّا كَانَ هَذَا مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ وَلَا مَنْفَعَةَ ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ الْبَاطِلِ الَّذِي يُنْفَى وَيُقَالُ فِيهِ : لَيْسَ بِشَيْءٍ ؛ وَهُوَ بَاطِلٌ وَيُلْحَقُ بِالْمَعْدُومِ . فَثَبَتَ أَنَّهُ إنْ لَمْ يَحْصُلْ فِي كُلِّ قَصْدٍ مَقْصُودٍ لِنَفْسِهِ ، وَإِلَّا

كَانَ بَاطِلًا . وَالْمَقْصُودُ لِنَفْسِهِ إنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ اللَّهُ كَانَ بَاطِلًا ؛ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ لِنَفْسِهِ هُوَ الْمَعْبُودُ ؛ وَمَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ كَانَ بَاطِلًا ، وَعِبَادَتُهُ بَاطِلَةٌ ؛ لِأَنَّهُ لَا مَنْفَعَةَ فِيهِ وَلَا فِي عِبَادَتِهِ ، بَلْ ذَلِكَ ضَرَرٌ مَحْضٌ . قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : {يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ} وَهَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ مَعْبُودٍ ، وَهَذَا حَقِيقَةُ الدِّينِ . فَإِنَّ اللَّهَ إنَّمَا خَلَقَ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَسَخَّرَ لَهُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى عِبَادَتِهِ ؛ فَمَنْ لَمْ يَسْتَعِنْ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَلَى عِبَادَتِهِ : فَعَمَلُهُ كُلُّهُ ، وَقَصْدُهُ : بَاطِلٌ وَلَا مَنْفَعَةَ فِيهِ ، بَلْ فِيهِ الضَّرَرُ . فَثَبَتَ أَنَّ كُلَّ قَصْدٍ وَمَقْصُودٍ سِوَى اللَّهِ بَاطِلٌ ، سَوَاءٌ كَانَ مَقْصُودًا لِنَفْسِهِ أَوْ لِغَيْرِهِ ، سِوَى اللَّهِ . وَإِنَّمَا الْحَقُّ أَنْ يُقْصَدَ اللَّهُ ، أَوْ يُقْصَدَ مَا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى قَصْدِ اللَّهِ - -]

والعبد إن طلب شيئاً في الدنيا لغاية إسعاده ، كأن يأكل ليشبع ، أو يُجامع امرأته ، وما إلى ذلك ، فإنه يعتقد أنّ تقدير هذه السعادة هو بيد الله U ، ويعتقد أن الله قادر على أن يمنعه من تحققها له ، لا يمنعه شيء من ذلك . قال - تعالى - : {فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [يس : ٨٣]

والمشرك لا يعتقد ذلك في الله I ، بل يُرجع أمر إسعاده وراحته إلى شريكه الذي يعتقد أنه يُقدّر ذلك له ، فيُعلّق قلبه بهذا الشريك وينسى الله U .

ومن مظاهر المحبّة الشركية في ذات الشريك : أن يغلب على المشرك حُبّه ، فيتعلق قلبه به ، ويستحوذ ذلك على فكره وعقله ، فلا يُبالي كيفما كان تحصيل هذا المحبوب ، ولا يكترث بأي شيء يفعله لبلوغ غايته منه ، سواء كان معصية لله I أم كفراً به . وكذلك الحال لو أنه نسب الفضل إلى غير الله I ، كما كان ينسب المشركون الفضل إلى أنوائهم عند المطر ، وإلى أصنامهم عند النصر على الأعداء ، وما إلى ذلك .

ثم قس على ذلك جميع أنواع الشرك .

أما قول ابن تيمية – رحمه الله – الذي نقلناه من [مجموع الفتاوى : ١/٩١-٩٢] في أن كفار قريش لم يُخالفوا في الربوبية إنما خالفوا في الألوهية ، فهو إن وجدنا له محملاً صحيحاً حسناً نقول : إن ذلك من

جنس قوله – تعالى - : { **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ** } [**البقرة : ٩٣**]

قال ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره :

[-- **وقوله : { قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } أي : بئسما تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه ، من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الأنبياء ، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد r - وهذا أكبر ذنوبكم ، وأشد الأمور عليكم - إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين ، المبعوث إلى الناس أجمعين ، فكيف تدّعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة ، من نقضكم المواثيق ، وكفركم بآيات الله ، وعبادتكم العجل ؟!** --]

فإيمان كفّار قريش بهذه الأمور هو مجرّد دعوى ، لم تنعقد قلوبهم على التصديق بها ، لذلك عبدوا مع الله I غيره **..** وهذا ما كان ينكره الله I عليهم في مواضع كثيرة ، كقوله : { **قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (*) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ** } [**المؤمنون : ٨٨-٨٩**]

قال ابن كثير – رحمه الله - :

[-- { **قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ** } **أي : فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره ، مع اعترافكم وعلمكم بذلك ؟** --]

فهم قد جمعوا بالمتناقضات في معتقداتهم ، فجمعوا بين المعتقد وضدّه في آن ، وغيّبوا عقولهم عن الاعتبار في ذلك ، فصاروا على ما هم فيه من شرك وكفر **.**

أو يُقال إنهم اعتقدوا بربوبية الله I على الإجمال لا التفصيل **.** فمع كونهم اعتقدوا أن بيده ملكوت كل شيء ، إلا أنهم جعلوا ذلك من جنس مُلْك مُلوك الأرض ، الذين لا بدّ لهم من أعوان وأنصار يُعينونهم في تدبير شؤون مُلكهم **.** لذلك قال الله – تعالى - : { **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ** } [**سبأ : ٢٢**]

• فصل

قال النبي r فيما رواه عن ابن ماجة والإمام أحمد بسند حسن : « **مدمن الخمر كعابد وثن** » .

وهنا مسألة مهمة في هذا الصدد ، وهي أنّ المداوم والمدمن على الشرك الأصغر ، سيقوم في قلبه أحوال شركية يكفر بها ويخرج من الدين ، وإن تقرر في ذهنه عكس ذلك ، فإن قلبه يناقض مقرره الذهني .

وفي ذلك يقول ابن تيمية – رحمه الله – في [مجموع الفتاوى : ١/٣٥]:
[-- فإذا تدبر الإنسان حال نفسه وحال جميع الناس ؛ وجدهم لا ينفكون عن هذين الأمرين : لا بد للنفس من شيء تطمئن إليه وتنتهي إليه محبتها ؛ وهو إلهها . ولا بد لها من شيء تثق به وتعتمد عليه في نيل مطلوبها ؛ هو مستعانها ؛ سواء كان ذلك هو الله أو غيره . وإذاً فقد يكون عاماً وهو الكفر ، كمن عبد غير الله مطلقاً ، وسأل غير الله مطلقاً ، مثل عباد الشمس والقمر وغير ذلك الذين يطلبون منهم الحاجات ، ويفزعون إليهم في النوائب . وقد يكون خاصاً في المسلمين ، مثل من غلب عليه حب المال ، أو حب شخص ، أو حب الرياسة ، حتى صار عبد ذلك ، كما قال r : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد الخميصة ، تعس عبد الخميلة : إن أعطي رضي ، وإن منع سخط . تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » وكذلك من غلب عليه الثقة بجاهه وماله ، بحيث يكون عنده مخدومه من الرؤساء ونحوهم ، أو خادمه من الأعوان والأجناد ونحوهم ، أو أصدقائه أو أمواله : هي التي تجلب المنفعة الفلانية وتدفع المضرة الفلانية ، فهو معتمد عليها ومستعين بها ، والمستعان هو مدعو ومسؤول . وما أكثر ما تستلزم العبادة الاستعانة ، فمن اعتمد عليه القلب في رزقه ونصره ونفعه وضره ؛ خضع له وذل ؛ وانقاد وأحبه من هذه الجهة ، وإن لم يحبه لذاته ، لكن قد يغلب عليه الحال حتى يحبه لذاته ، وينسى مقصوده منه ؛ كما يصيب كثيراً ممن يحب المال ، أو يحب من يحصل له به العز والسلطان --]

وهذا يُبيّن لك أن من تعلّق قلبه دوماً أو غالباً بشيء ما ، يرجوه ويحبه ويخافه ، فإن فعله هذا وإن كان شركاً أصغر بمجرّده ، إلاّ أن غلبته على النفس وعلى أحوال القلب ، توقعه في الشرك الأكبر ، ويقوم في قلبه اعتقاد الربوبية في هذا المعبود ، حتى يطلبه ويقصده لذاته ، وإن أنكره بلسانه ؛ وهذا مُلاحظ عند المُغالين في القبور والأولياء ، فإنهم ليس على لسانهم سوى ذكر آلهتهم ، في السراء والضراء ، في الحضر والسفر .

الباب الرابع : توحيد الألوهية والربوبية متلازمان لا ينفكان ، وإن عُدم أحدهما عُدم الآخر

وهذه من المسائل الهامة في هذا الباب ، وهو أنه لا يُمكن شرعاً وعقلاً لأحد أن يعبد غير الله I وهو في ذات الأمر لا يعتقد فيه شيء أو وجه من الربوبية ، استحق بها هذا المعبود – في معتقد عابده – أن تُصرف له العبادة .

إذ أن الربوبية تستلزم الألوهية ولا بد ، ولا ينفكّان ، وهذا ما تقرر آنفاً في هذا البحث .

أما من يعترض ويقول إن مشركي قريش كانوا يعتقدون بربوبية الله I ، ولكنهم أشركوا معه في الألوهية فقط ، فهذا كلام غير منضبط .

بل البعض يقول إنهم وحّدوا الله U في ربوبيته ، وأشركوا معه في ألوهيته .. وهذا أيضاً لا يستقيم ، حيث إن الله U استدل بوحدانيته في الربوبية على استحقاقه للعبادة وحده في الألوهية ، وهذا مستفيض في القرآن .

وقبل أن نبحث في هذه المسألة ، وجب التنبيه على بعض الأمور التي تزيد مسألتنا هذه إيضاحاً ، وهي :

أن الرب له الصفات المطلقة ، غير المقيّدة بسلطان أو مشيئة أحد ، ولا تكون الربوبية كذلك إلا بهذا .

أما المربوب فصفاته محدودة ومقيّدة بمشيئة الرب ، لا تخرج عنها بحال ، كما قال تعالى : **{ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }** **[التكوير : ٢٩]** ، وقال أيضاً : **{ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ }** **[الروم : ٢٦]** .

فمن أخرج مشيئة العبد عن مشيئة المعبود ، فقد جعل من هذا العبد ربّاً . وكذلك الحال فيمن جعل سلطان العبد مستقلاً عن سلطان المعبود .

ثم من بنى على هذا الاعتقاد الكفري في هذا المخلوق : حبّاً أو خوفاً أو توكلاً أو استعانة وما إلى ذلك ، فقد عبده ، وأشرك في الألوهية بعدما أشرك في الربوبية .

أما من اعتقد في المخلوق العبودية لله – تعالى - ، وأنه لا يخرج عنها بحال ، وجعله سبباً إلى الله I ؛ يستجلب به النفع ، ويدفع به الضر ، من جملة الأسباب الدنيوية ، لا مُسبباً بنفسه لهذه الأمور ، فلا يكون ذلك شركاً أكبر .

فمن جعل الأمر كلّه لله - تعالى - ، لا يُشركه فيه أحد ، وجعل غيره أسباباً إليه ، هو خلقها ، لا يُقال في مثل هذا أنه وقع في الشرك الأكبر .

• فصل :

يقول الله I : { **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** } [فاطر : ٣]

يقول ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية :
[-- ينبه - تعالى - عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فَليفرد بالعبادة ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ؛ ولهذا قال : { لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } ، أي : فكيف تؤفكون بعد هذا البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان ؟ --]

وهذا يدلّ على أن اسم وحكم الإله لا يكون إلا فيمن تحققت فيه صفات الربوبية ، وقد كان الله U يخاطب الكفار بالألوهية في مواضع ، وهم يفهمون أنها تعني الربوبية .

ولو كانت الربوبية تنفك عن الألوهية ، لما صح الاستدلال بالربوبية على الألوهية .

وكذلك في قوله I : { **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** } **[الأنبياء : ٢٢]** ، وقوله : { **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** } **[المؤمنون : ٩١]** ، وقال أيضاً : { **قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً** } **[الإسراء : ٤٢]**

فلو كان يصحّ ألا يكون الإله ربّاً ، لاعترض مشركو قريش وقالوا : ولأي شيء تفسد السماوات والأرض بتعدد الآلهة وهي ليس من أمرها شيء ؟ ولأي شيء يكون للإله خلق ، والخلق ليس من خصائص الإله ؟ ولأي شيء ينازعون صاحب العرش وهي لا قدرة ولا قوة لها ؟

وقد استفاض القرآن الكريم بمثل هذه الآيات ، كقوله – تعالى - : { **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ** } [الزخرف : ٨٧]

فوحدانية الله I في الخلق والرزق والتدبير ، تلزم قطعاً وحتماً وحدانيته في العبادة ، ومن أشرك به في ألوهيته ، فقد أشرك به في ربوبيته ، لأنه يزعم أن هذا الذي يعبده من دون الله I ، له من الصفات ما تؤهله وتخوّله لأن يكون إلهاً ، وهذه الصفات التي استحق بها هذا الإله العبادة هي صفات الربوبية ، إما من خلق أو رزق أو تدبير أو حُكم ، وما إلى ذلك .

فاستحقاق الألوهية لا يكون إلا لمن قامت فيه الربوبية . فمن جعل غير الله مستحقاً للألوهية ، فقد جعل فيه من صفات الربوبية ما اقتضى ذلك له من الألوهية .

والإله لا بدّ أن يكون ربّاً ، ومن اتخذه الناس إلهاً لهم ، لا بدّ أن يعتقدوا فيه شيئاً من الربوبية ، ومن أدلة ذلك قوله – تعالى - : { **اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } [التوبة : ٣١]

قال ابن تيمية – رحمه الله – في [مجموع الفتاوى : ٦٧/٧]:

[-- **وَقَدْ قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } . وَفِي حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ - وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ طَوِيلٌ رَوَاهُ أَحْمَد وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا - وَكَانَ قَدْ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ r وَهُوَ نَصْرَانِيٌّ ، فَسَمِعَهُ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ ، قَالَ : فَقُلْت لَهُ : إنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ ؛ قَالَ : أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ ؟ قَالَ : فَقُلْت : بَلَى . قَالَ : فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ . وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو البختري : أَمَا إنَّهُمْ لَمْ يُصَلُّوا لَهُمْ ، وَلَوْ أَمَرُوهُمْ أَنْ يَعْبُدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا أَطَاعُوهُمْ ، وَلَكِنْ أَمَرُوهُمْ : فَجَعَلُوا حَلَالَ اللَّهِ حَرَامَهُ ، وَحَرَامَهُ حَلَالَهُ ؛ فَأَطَاعُوهُمْ ، فَكَانَتْ تِلْكَ الرُّبُوبِيَّةَ . وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ : قُلْت لِأَبِي الْعَالِيَةِ : كَيْفَ كَانَتْ تِلْكَ الرُّبُوبِيَّةُ فِي بَنِي إسْرَائِيلَ ؟ قَالَ : كَانَتْ الرُّبُوبِيَّةُ أَنَّهُمْ وَجَدُوا فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا أُمِرُوا بِهِ وَنُهُوا عَنْهُ ، فَقَالُوا : لَنْ نَسْبِقَ أَحْبَارَنَا بِشَيْءٍ ؛ فَمَا أَمَرُونَا بِهِ ائْتَمَرْنَا ، وَمَا نَهَوْنَا عَنْهُ انْتَهَيْنَا لِقَوْلِهِمْ ، فَاسْتَنْصَحُوا الرِّجَالَ ، وَنَبَذُوا كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ . فَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ r أَنَّ عِبَادَتَهُمْ إيَّاهُمْ كَانَتْ فِي تَحْلِيلِ الْحَرَامِ ، وَتَحْرِيمِ الْحَلَالِ ، لَا أَنَّهُمْ صَلَّوْا لَهُمْ وَصَامُوا لَهُمْ وَدَعَوْهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَهَذِهِ عِبَادَةٌ لِلرِّجَالِ ، وَتِلْكَ عِبَادَةٌ لِلْأَمْوَالِ ، وَقَدْ بَيَّنَهَا النَّبِيُّ r ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّ ذَلِكَ شِرْكٌ بِقَوْلِهِ : { لَا إلَهَ إلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }** --]

الشاهد فيه هو أنهم اعتقدوا فيهم حق التشريع من دون الله ، بل وقدّموا أقوالهم على قول الله **I** ، وهذا شرك في الربوبية ، **إذ أن الحكم والتشريع هو حق خالص لله وحده ، وهو من أعظم الربوبية لله U** ، إذ يقول – سبحانه - : { **أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** } **[الأعراف : ٥٤]** . فجعلوا الله **I** دون أحبارهم ورهبانهم في التشريع ، فآثروهم على الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً **..** فكان هذا شركاً في الربوبية ، ترتبّ عليه شرك في الألوهية بأن أطاعوهم **ظاهراً وباطناً** ، معتقدين تقديم أقوالهم على قول الله **U ..** فلذلك سماهم الله – تعالى – أرباباً ، **وقد فهم عدي بن حاتم معنى الرب بأنه الإله** ، لذلك بادر إلى القول **:** ما عبدناهم **..** إذ أنه علم أن الربّ لا بدّ أن يُعبد ، وهذا أكثر أنواع الشرك في الناس **..** ونظير

هذه الآية قوله – تعالى - : { **وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ** } **[الأنعام : ١٢١] .**

ومن أدلة ذلك أيضاً قوله - تعالى - : { **قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** } [الأنعام : ١٦٤]

هذا مع كون مشركي قريش جادلوا النبي **r** في ألوهية الله **U** ، مع اعتقادهم أنه الخالق الرازق ، ولكن لأن الإله لا بدّ أن يكون رباً ، فكان جدالهم في الإله هو جدال في الربّ ، والأمران سيان **.**

وقد يسأل سائل : لماذا يذكر الله **U** آلهة المشركين على أنها لا تخلق ولا ترزق ، مع أن كفّار قريش أنفسهم كانوا يعتقدون في آلهتهم ذلك (أي : نفي الخلق والرزق عنها) ، و لم يكن هذا بمعضل على أفهامهم ؟

الجواب أن يقال : إنما أراد الله **U** أن يبيّن للناس أن هذه المعبودات التي جعلتم فيها بعض صفات الربوبية ، كحق التشريع والشفاعة عند الله **I** دون إذنه (أي أن لها مشيئة وإرادة مستقلة) المترتبة على زعمهم أن هذه الآلهة بنات الله **I** ، وأنهنّ يعاونّه في تدبير الأمر ، وغير ذلك من صفات الربوبية ، هي لا تستحق هذه الصفات لأنها عاجزة ، ليس بيدها شيء ، والعاجز لا يُمكن أن يكون ربّاً **.**

فلا هي تملك شيئاً في الأرض ولا في السماء ، وليست بأيديها مقاليدهما ، ناهيك عن عجزها عن الخلق والرزق **.** فمن كان عاجزاً لا يحقّ فيه وصف الربّ بله الإله **.**

لذلك قال الله – تعالى - : { **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** } **[الروم : ٤٠]** ، وقال : { **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ**

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ } [الحج : ٧٣]

فكان الله U يُظهر عجز هؤلاء الأنداد والمعبودات ، فمن كان عاجزاً فحريّ به ألا يُعبد ولا يكون في حقه شيء من صفات الربوبية .

فالرب هو الذي لا يُعجزه شيء ، قال – تعالى - : **{ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً } [فاطر : ٤٤]**

ومن استحق صفة واحدة من صفات الربوبية ، فإن ذلك يخوّله لاستحقاق باقي الصفات .. فمن استحق الأمر والنهي ، أي : التشريع ، يجب أن يكون خالقاً لما يأمره . كما قال - تعالى - : **{ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [الأعراف : ٥٤]**

والذين يقولون إن لله U بنات هنّ الملائكة ، ويعتقدون أن الله U مفتقر ومحتاج إليهن ، وهنّ يعاونّه في تدبير الأمر ، وإدارة أمر ملكه ، كحال أبناء الملوك وحاشيتهم ، وأنه I يخشى غضبهن ، ويعتقدون أن لهنّ مشيئة وإرادة مستقلة عن الله I ، وشفاعتهن لازمة وواجبة عليه I : يجب أن يعتقدوا فيهنّ مقوّمات الربوبية التي استحقت بها هؤلاء البنات – في زعمهم – هذه الرتبة ، بحيث لا يخرج الله U عن أمرهن ، ويستجيب لشفاعتهن مكرهاً ، ويخشى تمرّدهن ، تعالى الله عن هذا الكفر علوّاً كبيراً .

فكان الله U يبيّن أن هؤلاء المزعومات ليس لديهنّ من مقومات الربوبية من شيء ، لا يقدرن على الخلق ، ولا الرزق ، ولا التدبير ، وليس لديهن شرك في في ملكوت الله U ، فكيف يحتاج الله I إليهن ؟؟ ولأيّ شيء تكون شفاعتهن لازمة على الله I ؟

فمن قال بتعدد الأرباب ، وأن لكلّ منها صفة لا يشركه فيها غيره ، فإنه متناقض بهذا الاعتقاد ، ومُمتهن ومُحتقِر لهذه الأرباب جميعها ، إذ يزعم أن كلّاً منها يقف عاجزاً ذليلاً أمام غيره ، ممن يقدر على ما لا

يقدر عليه ، كما قال ‌ : { **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** } **[المؤمنون : ٩١]**

فذِكْر الله ‌ لهذه الأمور وتذكيره للمشركين بها ، إنما هو لإظهار تناقضهم في معتقداتهم وأقوالهم ، فيُفتضح فساد دينهم ، ويبين باطلهم الذي هم عليه **.**

ونقول أيضاً استدلالاً عقلياً على أن المشرك لا بدّ له من اعتقاد الربوبية في المألوه : إنه لا يمكن أن يعبد أحدهم شيئاً وهو لا يعتقد فيه ما استحق هذا الشيء به العبادة **..**

فكفار قريش كانوا يشكرون أصنامهم ويمنحونها القرابين ، فهل تراهم كانوا يشكرونها عبثاً ، لا رجاء منفعة أو خوف مضرة ؟ .. والشكر هو أساس العبادة ، كما قال تعالى : { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** } [البقرة : ١٧٢] ، وقال أيضاً : { **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ** } [البقرة : ١٥٢] ، وقال أيضاً : { **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** } [لقمان : ١٢] .. مفاد الآيات أن من لا يشكر الله فهو كافر به ، ومن شكر غيره و لم يشكره ، فهو مشرك به **.**

قال أبو عاصم في [مختصر معارج القبول – الطبعة الخامسة - : ٨٥-٨٦] :

[-- تلازم أنواع التوحيد وفساده بفساد أحدها :

ما ذكرناه من أن عُبّاد الأوثان مقرون لله بالربوبية وشاهدون بتفرد الله بذلك ، وأنهم إنما أشركوا بالله في الإلهية ، حيث عبدوا معه غيره ، فهذا في الظاهر ، وإلا فأنواع التوحيد متلازمة ، فمن صرف عبادة كالدعاء لوثن من الأوثان ، وطلب منه أن يختار له ما فيه مصلحته (يسافر أو لا يسافر ، يفعل هذا الأمر أو لا يفعله ، هل يضره ذلك الشيء أو لا يضره .. إلى آخره مما كان يفعله المشركون وينتظرون فيه الجواب من الآلهة المدعاة) فمن فعل ذلك فقد نسب للوثن القدرة وعلم الغيب ، وما لا يقدر عليه إلا الله ، وذلك من خصائص الربوبية ، لذا فشركهم هذا في العبادة يتضمن شركاً في الربوبية ، وهذا الأمر ظاهر كذلك في

عُبّاد القبور والأضرحة في كل مكان وزمان ، حيث يطلبون من معبوداتهم أموراً لا يقدر عليها إلا الله ، فعبادتهم أو دعاؤهم لهم شرك في العبادة ، وكونهم يسألونهم أموراً لا يسألها إلا من له القدرة المطلقة ، وعلم الغيب ، والسمع الذي وسع الأصوات كلها : شرك في الربوبية .

ولما كان الشرك في العبادة ينطوي على الشرك في الربوبية ولا بد ، كان الاتجاه بالعبادة لا ينبغي إلا لله ، وكان حقاً له - تعالى - على عباده ، لذلك ورد في الصحيحين عن معاذ بن جبل t قال : كنت رديف النبي r على حمار فقال لي : يا معاذ ، أتدري ما حق الله - تعالى - على العباد وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً --]

هذا مع التنبيه على خطأ الكاتب في قوله إن المشركين وحّدوا الله I في ربوبيته ظاهراً ، فإنه كما سيظهر لنا قريباً فإنهم لم يوحدوه لا ظاهراً ولا باطناً .

أو لعلّه يُقال : وحدّوه في عموم الربوبية ، وأشركوا به عند التفصيل .

فكانوا يعتقدون أن الله I بيده ملكوت كل شيء ، وفي نفس الوقت يعتقدون أنه مُفتقر إلى آلهتهم ، لا يستطيع ردّ شفاعتها ، لحاجته إليها وخوفه منها ، سبحانه وتعالى عمّا يدّعون .

الباب الخامس : بيان حقيقة اعتقاد كفار قريش في الله U وفي شركائهم

من الأهمية بمكان أن نبحث ونعتبر في معتقد كفار قريش في الله U وفي شركائهم ، وذلك لبيان حقيقة الأحكام التي أنزلها الله - تعالى - فيهم في كتابه ، وهذا يهمنا كثيراً في مسألة العبادة المطروحة هنا ، إذ أنه قد وقع الكثيرون في القياس الفاسد لأفعال بعض المسلمين من أهل البدع على شرك كفار قريش ، فجعلوا الأمرين سيان ، وهما في حقيقتهما مختلفان .

فماذا كان حقيقة معتقد كفار قريش ؟

الجواب : إن صور اعتقادهم الشركية والكفرية متعددة :

أولاً : اعتقاد البنوة في الله - تعالى - :

فأصل شرك هؤلاء الكافرين هو اعتقاد البنوة في الله I لشركائهم ، فزعموا أنهم أبناء أو بنات الله U ، وأفضى ذلك إلى اعتقاد الشفاعة الشركية فيهم ، فعبدوهم من دون الله U .

نعم ، كانوا يعتقدون أن الله I خالق كل شيء ، وبيده ملكوت كل شيء ، ويجير ولا يجار عليه ، وما إلى ذلك ، ولكنهم لم يصحّ عندهم في تصوّرهم وظنّهم أن هذا كائن دون أعوان وظهراء يقوم بهم ملكوت الله U . فجعلوا الله I محتاجاً ومفتقراً إلى هؤلاء الشركاء ، وأنه من دونهم لا يقوم لملكه قائمة ، سبحانه وتعالى عمّا يشركون ويفترون .

يقول الله – تعالى - : **{ قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } [يونس : ٦٨]**

يقول الطبري في تفسيره عند هذه الآية :

[-- يقول - تعالى ذكره - : قال هؤلاء المشركون بالله من قومك : يا محمد ، اتخذ الله ولدًا ؛ وذلك قولهم : (الملائكة بنات الله) . يقول الله منزهًا نفسه عما قالوا وافتروا عليه من ذلك : { سبحان الله } ، تنزيهًا لله عما قالوا وادَّعوا على ربهم . { هو الغني } يقول : الله غنيٌّ عن خلقه جميعًا ، فلا حاجة به إلى ولد ، لأن الولد إنما يَطْلُبه من يطلبه ، ليكون عونًا له في حياته ، وذكرًا له بعد وفاته ، والله عن كل ذلك غنيٌّ ، فلا حاجة به إلى معين يعينه على تدبيره ، ولا يَبيدُ فيكون به حاجة إلى خلف بعده . { له ما في السموات وما في الأرض } ، يقول - تعالى ذكره - : لله ما في السموات وما في الأرض مِلْكًا ، والملائكةُ عباده ومِلْكه ، فكيف يكون عبد الرجل ومِلْكه له ولدًا ؟ --]

وكان هذا الولد – بحسب معتقدهم – يشفع عند الله **U** من غير إذنه ، ولا رضاه ، بل لعل الله **U** في معتقدهم يخاف غضبه أو تمرّده عليه ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً . لذلك لا تكاد تجد آية في القرآن فيها ذكر الشفاعة ، إلا ويُذكر معها الإذن بها من قِبَل الله **I** . كقوله في آية الكرسي : **{ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ }** .

فاعتقاد مثل ذلك من أكبر القوادح في توحيد ربوبية الله **U** ، إذ لم يجعلوه مستقلاً بحكمه وملكه ، بل جعلوه مفتقراً محتاجاً إلى غيره ليقوم بهم سلطانه وملكوته ، سبحانه وتعالى عمّا يقولون .

وحيث إنهم كانوا يعتقدون الشفاعة في معبوداتهم الباطلة من دون الله **U** ، دون إذنه **I** ، فإنهم أثبتوا بذلك مشيئة مستقلة عن مشيئة الله **U** ، وأن الله – تبارك وتعالى – لا يشاء شيئاً إلا مقروناً بمشيئة هؤلاء الشركاء ، وهذا شرك في الربوبية ولا بد . لذلك عندما قال رجل للنبي **r** : ما شاء الله وشئت ؛ قال له النبي **r** : أجعلتني لله نداً ؟ .. بما يُفيد أن ادعاء المشيئة المستقلة الفاعلة بذاتها دون إذن الله ، هو شرك أكبر .

وقال – تعالى - : **{ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ }** [الأنعام : ١٠٠]

قال ابن كثير – رحمه الله - :

[-- وقوله - تعالى - : { وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ } : ينبه به - تعالى - على ضلال من ضل في وصفه - تعالى - بأن له ولداً ، كما يزعم من قاله من اليهود في العزير ، ومن قال من النصارى في المسيح ، وكما قال المشركون من العرب في الملائكة : إنها بنات الله ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

ومعنى قوله – تعالى - : { وَخَرَقُوا } أي : واختلقوا وائتفكوا ، وتخرّصوا وكذبوا ، كما قاله علماء السلف --]

ثم قال ردّاً عليهم : **{ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (*) ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ }** [الأنعام : ١٠١ - ١٠٢]

فردّ عليهم بأنه خالق كل شيء ، بما يفيد أنّ الاعتقاد بالبنوة لله **U** ، إنما هو قدح في اعتقادهم ربوبيته **I** ، وبأنه خالق كل شيء . فهم بذلك أخرجوا ما اعتقدوه ابناً أو بنتاً لله **U** ، من كونه عبداً مخلوقاً ، إلى كونه رباً شريكاً له في ملك الله **I** ، وهذا ما كانوا يعنونه في تلبيتهم عند البيت إذ كانوا يقولون : ((لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك)) .. أي كما يملك المرء زوجته وولده ، لكنه لا يستغني عنهما .

وكذلك كان اعتقاد النصارى في عيسى **u** ، فإنهم بعد أن زعموا أنه ابن الله – تعالى - ، ردّ عليهم الله **I** فقال : **{ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً (*) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً }** [مريم : ٩٢- ٩٣] .

فادعاء البنوة لله **I** هو إخراج لهذا الابن المزعوم من دائرة العبودية إلى دارة الربوبية ، حتى تجرأوا وقالوا هو الله ، أو هو جزء من الله ، سبحانه وتعالى عما يقولون .

وادعاؤها ذلك هو شرك في الربوبية ، كما قال الله – تعالى - : **{ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ }** [الزخرف : ٨١] أي : فأنا أول العابدين لاستحقاق هذا الابن العبودية ، ولا يستحقها إلا من كان ربّاً ، كما بيّنا .

فحيث إن الإله هو المستحق للعبادة بسبب ربوبيته ، فإن ابنه – لو كان – يستحق العبادة كذلك ، لأن ابن الشيء من جنسه ، فعليه يكون ابن الرب ربّاً .

ثانياً : استخفافهم بعظمة الله U :

إن نسبة الولد إليه I هو شتيمة ، كما جاء في الحديث الصحيح : « **قال الله تعالى : يشتمني ابن آدم ، وما ينبغي له أن يشتمني ، ويكذبني ، وما ينبغي له . أما شتمه فقوله : إن لي ولداً ، وأما تكذيبه فقوله : ليس يعيدني كما بدأني** »

و لم يكونوا يتورعون عن الاستخفاف بعظمة الله I وجلالته . قال - تعالى - : **{ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (*) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى }** **[النجم : ٢١- ٢٢]** ؛ فلم يكونوا يرضون لأنفسهم ما رضوه لله I ، كما قال : **{ وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ الْنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ }** **[النحل : ٦٢]** ؛ هنا هم يُعظمون أنفسهم أشد من تعظيمهم لله .

ويقول أيضاً : **{ وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ }** [النحل : ٥٧]

يقول ابن كثير عند هذه الآية :
[-- ثم أخبر - تعالى - عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، وجعلوها بنات الله ، وعبدوها معه ، فأخطأوا خطأً كبيرًا في كل مقام من هذه المقامات الثلاث ، فنسبوا إليه - تعالى - أن له ولداً ، ولا ولد له ! ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات ، وهم لا يرضونها لأنفسهم ، كما

قال : { أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى (*) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى } [النجم : ٢١ - ٢٢] ، وقال هاهنا : { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ } أي : عن قولهم وإفكهم { أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (*) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (*) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (*) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } [الصافات : ١٥١ -١٥٤] .

وقوله : { وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ } أي : يختارون لأنفسهم الذكور ، ويأنَفُون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا --]

وكذلك في قوله I : { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ } [الزخرف : ١٧] ؛ فقد كانوا يرضون لله U من الإهانة ما لا يرضونه لأنفسهم ، وهذا دليل على استهانتهم واستخفافهم بالله I وانتفاء إيمانهم بعظمته وجلاله .

ووصل الأمر بالكفار إلى شتم الله U صراحة : { وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ } [المائدة : ٦٤] . وأيضاً : { لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء } [آل عمران : ١٨١] ؛ وهذا الاستخفاف بالله – تعالى – وبعظمته وجبروته هو من القوادح في اعتقاد ربوبيته U .

و لم يوحدوه في جلاله وعظمته ، وقد ذكر الله I حالهم في ذلك فقال : { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [الزمر : ٦٧]

جاء في تفسير ابن كثير عند هذه الآية :

[-- يقول - تعالى - : وما قدر المشركون الله حق قدره ، حين عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذي لا أعظم منه ، القادر على كل شيء ، المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قهره وقدرته .

قال مجاهد : نزلت في قريش . وقال السدي : ما عظموه حق عظمته .

وقال محمد بن كعب : لو قدروه حق قدره ما كذبوه .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ } هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله – تعالى – عليهم ، فمن آمن أن الله على كل شي قدير ، فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره --]

فالكفار لم يعرفوا قدر الله U كما ينبغي ، و لم يعتقدوا بقدرته المطلقة .

ثالثاً : تعظيم شركائهم على الله I :

قال الله – تعالى - : **{ وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ } [الأنعام : ١٣٦]**

تفسير هذه الآية مما يطول ذكره ، لكنني أذكر طرفاً من تفسير الطبري عندها ، إذ يقول :

[-- وأما قوله : { ساء ما يحكمون } ، فإنه خبر من الله - جل ثناؤه - عن فعل هؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم . يقول - جل ثناؤه - : وقد أساؤوا في حكمهم إذ أخذوا من نصيبي لشركائهم ، ولم يعطوني من نصيب شركائهم . وإنما عنى بذلك - تعالى ذكره - الخبرَ عن جهلهم وضلالتهم ، وذهابهم عن سبيل الحق ، بأنهم لم يرضوا أن عدلوا بمن خلقهم وغذاهم ، وأنعم عليهم بالنعم التي لا تحصى ، ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، حتى فضّلوه في أقسامهم عند أنفسهم بالقَسْم عليه --]

رابعاً : اعتقادهم علم الغيب في شركائهم :

جاء في تفسير الطبري [٣١٠/٧:٣٠]:

[-- ثم إن أبا سفيان حين أراد الانصراف ، أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته : (أنعمْتَ فعالِ ! إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، اعْلُ هُبَل) ، أي : أظهر دينك --]

قال الشيخ أحمد شاكر معقّباً :

[-- قوله : (أنعمت) ، أي : جئت بالسهم الذي فيه (نعم) ، و(عال) ، أي : تجاف عنها - عن الأصنام - ولا تذكرها بسوء . يقال : (عال عني ، وأعل عني) ، أي تنح . وذلك أن الرجل من قريش من أهل الجاهلية ، كان إذا أراد ابتداء أمر ، عمد إلى سهمين فكتب على أحدهما (نعم) وعلى الآخر (لا) ، ثم يتقدم إلى الصنم ويجيل سهامه ، فإن خرج سهم (نعم) أقدم ، وإن خرج سهم (لا) امتنع . وكان أبو سفيان لما أراد الخروج إلى أحد ، استفتى هبل ، فخرج له سهم الإنعام . فذلك تفسير كلمته --]

خامساً : مظاهر أخرى من قدحهم في ربوبية الله U :

أولاً : لم يكونوا يعتقدون أن آلهتهم عباد لله - تعالى - ، بل اعتقدوا أنهم شركاء له . قال I : **{ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }** [الأعراف : ١٩٤] .. وقال أيضاً : **{ أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً }** [الإسراء : ٥٧] ، فأخرجوا بذلك آلهتهم عن نطاق العبودية والخضوع لله - تعالى - ، إلى نطاق الشراكة والمساواة معه في بعض ربوبيته ، فادعوا أنهم بنات الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وثانياً : أشركوا معه في التشريع . قال - تعالى - : **{ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }** [الشورى : ٢١] .

وقال I أيضاً : **{ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } [التوبة : ٣٧]**

وقال I أيضاً : **{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ } [لقمان : ٢١]**

ثالثاً : اعتقدوا الضر والنفع في آلهتهم ، كما قال - تعالى - : { **إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ** } [هود : ٥٤]

وكما في قوله – تعالى - : { **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** } [**الزمر : ٣٦**]

جاء في تفسير الطبري :

[--وقوله : { **وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ** } : **يقول - تعالى ذكره - لنبيه محمد r : ويخوّفك هؤلاء المشركون يا محمد بالذين من دون الله من الأوثان والآلهة أن تصيبك بسوء ، ببراءتك منها ، وعيبك لها ، والله كافيك ذلك** --]

وبعضهم لا يعتقد بقدرة الله **U** على الإماتة . قال - تعالى - : { **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** } [الجاثية : ٢٤]

وذكر قتادة أن هذا كان هو معتقد كفار قريش ..

رابعاً : كانوا بالآخرة كافرين ، في إنكار لقدرة الله على الإحياء بعد الموت . قال – تعالى - : { **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** } [سبأ : ٧]

وقال أيضاً ذاكراً قولهم : { **أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ** } [ق : ٣] ، فأجابهم **I** بعد ذكره لعظيم قدرته وبيانها : { **أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ** } [ق : ١٥]

يقول ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية : [-- وقوله : { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ } أي : أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة ؟ { بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } والمعنى : أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه ، كما قال – تعالى - : { وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } [الروم: ٢٧] ، وقال الله – تعالى - : { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (*) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس : ٧٨-٧٩] ، وقد تقدم في الصحيح : « يقول الله – تعالى - : يؤذيني ابن آدم ، يقول : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته » --]

وقال – تعالى - : { وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (*) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (*) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (*) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (*) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (*) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (*) قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (*) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (*) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (*) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (*) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (*) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (*) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (*) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (*) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [المؤمنون : ٧٨ - ٩٢]

فهم مع اعتقادهم أن الله خلقهم ، وأن له ما في السماوات وما في الأرض ، وأن بيده ملكوت كل شيء ، إلا أنهم غيّبوا عقولهم ، ووقعوا في تناقض صارخ في اعتقاد ربوبيته ▌ ، فشكروا غيره ، وانتقصوا من قدر الله ▌ وعظّموا شأن غيره ، كما قال – تعالى - : { وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ } [الأنعام : ١٣٦]

وكذّبوا بقدرة الله على البعث ، مع اعتقادهم بما هو أعظم من ذلك من خلقهم وخلق السماوات والأرض ، وقد ذكر الله – تعالى – سبب ذلك ، فقال : { **بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (*) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ** } [القيامة : ٥ - ٦] . وقد ظنوا أنهم خُلقوا عبثاً . قال – تعالى - : { **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ** } [المؤمنون : ١١٥] .

وكل هذا يدلّ على أنهم لم يوحّدوا الله – تعالى – في ربوبيته ، فلا هم وحّدوه في الخلق ، ولا في القدرة ، ولا العلم .. كما قال - تعالى - : { **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ** } [الزخرف : ٨٠] .. فظنوا أنّ الله – تعالى – لا يسمع سرّهم ونجواهم .

خامساً : كانوا يعتقدون بالأنواء والكواكب ، كما قال تعالى : { **وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ** } [**الواقعة : ٨٢**] .. وقد ذكر أهل التفسير أنهم كانوا ينسبون الفضل في المطر إلى الأنواء .. وبنحو ذلك ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في [مجموع الفتاوى : ١٦/١٥٠] عند تفسيره لهذه الآية :
[-- **أي تجعلون شكركم وشكر ربكم التكذيب بإنعام الله وإضافة الرزق إلى غيره** --]

سادساً : قد أمنوا مكر الله ، كما قال – تعالى - : { **أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** } [الأعراف : ٩٩]

قال الحسن البصري فيما رواه عنه ابن كثير – رحمهما الله - : (المؤمن يعمل بالطاعات وهو مُشْفِق وَجِل خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن) . فإن كان هذا حال الفاجر ، فالكافر أشد حالاً .

كل هذا من كفرهم بربوبية الله ، والمتأمل في كتاب الله والمتدبر لآياته تتضح له هذه المسائل جيداً .

• فصل

وبالجملة ، كل من عصى الله – تعالى – أو كفر به ، فقد قام في قلبه من الجهل بربوبية الله U ما أفضى به إلى ذلك . فإنه لا يُمكن أن يتصوّر أحدٌ أنّ من يخاف الله يعصيه . بل لا بدّ أن ينتفي عنه إيمانه بعظمة الله I عند عصيانه ، وقد يكون هذا الانتفاء جزئياً يفسق صاحبه ولا يكفر ، وقد يكون كليّاً بحيث يؤدي بصاحبه إلى الشرك ، كما بيّنا ذلك آنفاً .

ومن أدلة قولنا هو قول النبي r في الحديث الصحيح : « **لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ، يرفع الناس إليه فيها أبصارهم ، حين ينتهبها وهو مؤمن** » .. وإن كان مستحلاً لذلك بقلبه فهو كافر .

قال ابن تيمية – رحمه الله – في [مجموع الفتاوى : ٢٢/٧-٢٣]:

[-- والمقصود هنا أن كل عاص لله فهو جاهل ، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله ؛ وإنما يكون جاهلاً لنقص خوفه من الله ، إذ لو تم خوفه من الله لم يعص . ومنه قول ابن مسعود t : (كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً) . وذلك لأن تصور الـمَخوف يوجب الهرب منه ، وتصور المحبوب يوجب طلبه ؛ فإذا لم يهرب من هذا ولم يطلب هذا ؛ دل على أنه لم يتصوره تصورا تاماً ؛ ولكن قد يتصور الخبر عنه ، وتصور الخبر وتصديقه وحفظ حروفه غير تصور المخبر عنه . وكذلك إذا لم يكن المتصور محبوباً له ولا مكروهاً ؛ فإن الإنسان يصدّق بما هو مَخوف على غيره ، ومحبوب لغيره ، ولا يورثه ذلك هرباً ولا طلباً . وكذلك إذا أخبر بما هو محبوب له ومكروه ولم يكذّب المخبر ، بل عرف صدقه ؛ لكن قلبه مشغول بأمور أخرى عن تصور ما أخبر به ؛ فهذا لا يتحرك للهرب ولا للطلب . وفي الكلام المعروف عن الحسن البصري ويروى مرسلاً عن النبي r : « العلم علمان : فعلم في القلب ، وعلم على اللسان . فعلم القلب هو العلم النافع ؛ وعلم اللسان حجة الله على عباده » --]

والكافر عنده جهل كلّي بالله – تعالى - .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية – رحمه الله – في [مفتاح دار السعادة لابن القيم: ٩٢/١]:

[-- والقرآن مملوء بسلب العلم والمعرفة عن الكفار ، فتارة يصفهم بأنهم لا يعلمون ، وتارة بأنهم لا يعقلون ، وتارة بأنهم لا يشعرون ، وتارة بأنهم لا يفقهون ، وتارة بأنهم لا يسمعون ، والمراد بالسمع المنفي سمع الفهم ، وهو سمع القلب لا إدراك الصوت ، وتارة بأنهم لا يبصرون ، فدل ذلك كله على أن الكفر مستلزم للجهل ، مناف للعلم ، لا يجامعه ، ولهذا يصف - سبحانه - الكفار بأنهم جاهلون ، كقوله - تعالى - : { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا } [الفرقان : ٦٣] ، وقوله - تعالى - : { وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ } [القصص : ٥٥] ، وقوله - تعالى - : { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } [الأعراف : ١٩٩] --]

الباب السادس : كنه الشفاعة التي كان يعتقدها المشركون في أصنامهم :

يقول الله - تعالى - : { **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** } **[يونس : ١٨]**

فهم اعتقدوا شفاعة هذه الأصنام مع اعتقادهم أنها بنات لله I ، فكانوا يعتقدون أنها تشفع بغير إذن الله U كما تشفع البنت عند أبيها ، أو المرأة عند زوجها . وهذا ما كانوا يعنونه بقولهم في التلبية : ((إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك)) .. فكما أن الرجل يملك امرأته أو ابنته ، لكن قد يكون لهما من النفوذ والسلطان عند الرجل ما يخشى معه مضرّة قد تلحق به إن لم يُجب شفاعتهما ، كما تقدّم من كلام ابن تيمية – رحمه الله – في [مجموع الفتاوى : ١٠/١٨٥]:

[-- فَالرَّجُلُ إذَا تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِامْرَأَةٍ ، وَلَوْ كَانَتْ مُبَاحَةً لَهُ ، يَبْقَى قَلْبُهُ أَسِيرًا لَهَا ، تَحْكُمُ فِيهِ ، وَتَتَصَرَّفُ بِمَا تُرِيدُ ؛ وَهُوَ فِي الظَّاهِرِ سَيِّدُهَا ، لِأَنَّهُ زَوْجُهَا ؛ وَفِي الْحَقِيقَةِ هُوَ أَسِيرُهَا وَمَمْلُوكُهَا ، لَا سِيَّمَا إذَا دَرَتْ بِفَقْرِهِ إلَيْهَا ، وَعِشْقِهِ لَهَا ؛ وَأَنَّهُ لَا يَعْتَاضُ عَنْهَا بِغَيْرِهَا ؛ فَإِنَّهَا حِينَئِذٍ تَحْكُمُ فِيهِ بِحُكْمِ السَّيِّدِ الْقَاهِرِ الظَّالِمِ فِي عَبْدِهِ الْمَقْهُورِ ، الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الْخَلَاصَ مِنْهُ ، بَلْ أَعْظَمُ --]

لذلك لا تكاد ترى آية في القرآن في الشفاعة إلا يبيّن الله – تعالى – أنها بإذنه ، بما يوحي أنّ كفّار قريش كانوا يعتقدون أن الشفاعة تكون بغير إذن الله – تعالى - .

وهذا ما يفسّر عبادتهم لها ، فإنها إن رضيت ، رضي الله عنهم ، وإن سخطت ، سخط الله عليهم .. كما هو حال أهل الدنيا ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قال ابن القيم الجوزية – رحمه الله – في [إغاثة اللهفان : ١/٢١٩-٢٢١]:

[-- قالوا : فإن العبد إذا تعلقت روحه بروح الوجيه المقرب عند الله ، وتوجه بهمته إليه ، وعكف بقلبه عليه ، صار بينه وبينه اتصال ، يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله . وشبهوا ذلك بمن يخدم ذا جاه وحظوة وقرب من السلطان ، فهو شديد التعلق به . فما يحصل لذلك من السلطان من الإنعام والإفضال ينال ذلك المتعلق به بحسب تعلقه به .

فهذا سر عبادة الأصنام ، وهو الذي بعث الله رسله ، وأنزل كتبه بإبطاله ، وتكفير أصحابه ولعنهم . وأباح دماءهم وأموالهم ، وسبي ذراريهم ، وأوجب لهم النار . والقرآن من أوله إلى آخره مملوء من الرد علي أهله ، وإبطال مذهبهم .

قال - تعالى - : { أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ * قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ } [الزمر: ٤٣-٤٤] .

فأخبر أن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض ، وهو الله وحده . فهو الذي يشفع بنفسه إلى نفسه ليرحم عبده . فيأذن هو لمن يشاء أن يشفع فيه . فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له ، والذي يشفع عنده إنما يشفع بإذنه له وأمره ، بعد شفاعته - سبحانه - إلى نفسه ، وهي إرادته من نفسه أن يرحم عبده . وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم ، وهي التي أبطلها الله - سبحانه - في كتابه ، بقوله : { وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شفَاعَةٌ } [البقرة: ١٢٣] وقوله : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ } [البقرة: ٢٥٤] وقال - تعالى - : { وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِهِمْ لَيسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِي وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } [الأنعام: ٥١] وقال : { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } [السجدة : ٤] . فأخبر - سبحانه - أنه ليس للعباد شفيع من دونه ، بل إذا أراد الله - سبحانه - رحمة عبده أذن هو لمن يشفع فيه . كما قال - تعالى - : { مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ } [يونس: ٣] . وقال : { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعَ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِه } [البقرة: ٢٥٥] . فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه ، ولا الشافع شفيع من دونه ، بل شفيع بإذنه .

والفرق بين الشفيعين ، كالفرق بين الشريك والعبد المأمور . فالشفاعة التي أبطلها الله : شفاعة الشريك ، فإنه لا شريك له ، والتي أثبتها : شفاعة العبد المأمور ، الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتى يأذن له . ويقول : اشفع في فلان . ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة : أهل التوحيد ، الذين جردوا التوحيد وخلصوه من تعلقات الشرك وشوائبه ، وهم الذين ارتضى الله سبحانه . قال - تعالى - :

{ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى } [الأنبياء: ٢٨] ، وقال : { يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً } [طه: ١٠٩]

فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضاء قول المشفوع له ، وإذنه للشافع فيه ، فأما المشرك فإنه لا يرتضيه ، ولا يرضى قوله ، فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه ، فإنه - سبحانه - علقها بأمرين : رضاه عن المشفوع له ، وإذنه للشافع ، فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة .

وسر ذلك : أن الله له الأمر كله وحده ، فليس لأحد معه من الأمر شيء ، وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده : هم الرسل والملائكة المقربون ، وهم عبيد محض ، لا يسبقونه بالقول ، ولا يتقدمون بين يديه ، ولا يفعلون شيئاً إلا بعد إذنه لهم ، وأمرهم . ولا سيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ، فهم مملوكون مربوبون ، أفعالهم مقيدة بأمره وإذنه . فإذا أشرك بهم المشرك ، واتخذهم شفعاء من دونه ، ظناً منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله ، فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه ، وما يجب له ، ويمتنع عليه ، فإن هذا محال ممتنع ، شبيه قياس الرب - تعالى - على الملوك والكبراء ، حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج .

وبهذا القياس الفاسد عبدت الأصنام ، واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي .

والفرق بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق ، والرب والمربوب ، والسيد والعبد ، والمالك والمملوك ، والغني والفقير ، والذي لا حاجة به إلى أحد قط ، والمحتاج من كل وجه إلى غيره .

فالشفعاء عند المخلوقين : هم شركاؤهم ، فإن قيام مصالحهم بهم ، وهم أعوانهم وأنصارهم ، الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم ، ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم في الناس ، فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم ، وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع ، لأنهم يخافون أن يردوا شفاعتهم ، فتنتقض طاعتهم لهم ، ويذهبون إلى غيرهم . فلا يجدون بداً من قبول شفاعتهم على الكره والرضى ؛ فأما الغني الذي غناه من لوازم ذاته ، وكل ما سواه فقير إليه بذاته . وكل من في السماوات والأرض عبد له ، مقهورون بقهره ، مصرفون بمشيئته ، لو أهلكهم جميعاً لم ينقص من عزه وسلطانه وملكه وربوبيته وإلهيته مثقال ذرة .

قال - تعالى - : { لَقَدْ كَفَرَ الّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَللهِ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يخلق ما يشاء وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ } [المائدة : ١٧] ، وقال سبحانه في سيدة آي القرآن : آية الكرسي : { لَهُ مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ } [البقرة: ٢٥٥] ، وقال : { قل للهِ الشّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ } [الزمر: ٤٤].

فأخبر أن حال ملكه للسموات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده ، وأن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه ، فإنه ليس بشريك ، بل مملوك محض ، بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض .

فتبين أن الشفاعة التي نفاها الله - سبحانه - في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس ، ويفعلها بعضهم مع بعض ، ولهذا يطلق نفيها تارة ، بناءً على أنها هي المعروفة المتعاهدة عند الناس ، ويقيدها تارة بأنها لا تنفع إلا بعد إذنه ، وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه ، فإنه الذي أذن ، والذي قبل ، والذي رضي عن المشفوع ، والذي وفقه لفعل ما يستحق به الشفاعة وقوله .

فمتخذ الشفيع مشرك ، لا تنفعه شفاعته ، ولا يشفع فيه ، ومتخذ الرب وحده إلهه ومعبوده ومحبوبه ومرجوه ومخوفه الذي يتقرب إليه وحده ، ويطلب رجاءه ، ويتباعد من سخطه ، هو الذي يأذن الله - سبحانه - للشفيع أن يشفع فيه .

قال - تعالى - : { أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ } ، إلى قوله : { قُلْ للهِ الشّفَاعَةُ جَمِيعاً } [الزمر: ٤٣-٤٤] ، وقال - تعالى - : { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّموَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [يونس: ١٨] ، فبين - سبحانه - أن المتخذين شفعاء مشركون ، وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم هم ، وإنما تحصل بإذنه للشافع ، ورضاه عن المشفوع .

وسر الفرق بين الشفاعتين : أن شفاعة المخلوق للمخلوق ، وسؤاله للمشفوع عنده ، لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده ، لا خلقاً ، ولا أمراً ، ولا إذناً ، بل هو سبب محرك له من خارج ، كسائر الأسباب التي تحرك الأسباب ، وهذا السبب المحرك قد يكون عند المتحرك لأجله ما يوافقه ، كمن يشفع عنده في أمر يحبه ويرضاه ، وقد يكون عنده ما يخالفه كمن يشفع إليه في أمر يكرهه ، ثم قد يكون سؤاله وشفاعته أقوى من

المعارض ، فيقبل شفاعة الشافع . وقد يكون المعارض الذي عنده أقوى من شفاعة الشافع ، فيردها ولا يقبلها ، وقد يتعارض عنده الأمران ، فيبقي متردداً بين ذلك المعارض الذي يوجب الرد ، وبين الشفاعة التي تقتضي القبول ، فيتوقف إلى أن يترجح عنده أحد الأمرين بمرجح . فشفاعة الإنسان عند المخلوق مثله : هي سعي في سبب منفصل عن المشفوع إليه يحركه به ، ولو على كره منه . فمترلة الشفاعة عنده مترلة من يأمر غيره ، أو يكرهه على الفعل ، إما بقوة وسلطان ، وإما بما يرغبه ، فلا بد أن يحصل للمشفوع إليه من الشافع : إما رغبة ينتفع بها ، وإما رهبة منه تندفع عنه بشفاعته . وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه ، فإنه ما لم يخلق شفاعة الشافع ، ويأذن له فيها ، ويحبها منه ، ويرضى عن الشافع ، لم يمكن أن توجد ، والشافع لا يشفع عنده لحاجة الرب إليه ، ولا لرهبته منه ، ولا لرغبته فيما لزمه ، وإنما يشفع عنده مجرد امتثال أمره وطاعته له ، فهو مأمور بالشفاعة ، مطيع بامتثال الأمر ، فإن أحداً من الأنبياء والملائكة وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعة ولا غيرها إلا بمشيئة الله - تعالى - وخلقه ، فالرب **I** هو الذي يحرك الشفيع حتى يشفع ، والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع إليه حتى يقبل ، والشافع عند المخلوق مستغن عنه في أكثر أموره ، وهو في الحقيقة شريكه ، ولو كان مملوكه وعبده . فالمشفوع عنده محتاج إليه فيما يناله منه من النفع ، بالنصر والمعاونة وغير ذلك ، كما أن الشافع محتاج إليه فيما يناله منه : من رزق ، أو نصر ، أو غيره ، فكل منهما محتاج إلى الآخر .

ومن وفقه الله - تعالى - لفهم هذا الموضع ومعرفته ، تبين له حقيقة التوحيد والشرك ، والفرق بين ما أثبته الله - تعالى - من الشفاعة وبين ما نفاه وأبطله ، { وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نوراً فماله مِنْ نُورٍ } [النور: ٤٠] . --]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — في [مجموع الفتاوى : ١/١٤٩-١٥٠]:

[-- والثاني : أنه يراد بذلك نفي الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك ومن شابههم من أهل البدع : من أهل الكتاب والمسلمين ، الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه ، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض ، فيقبل المشفوع إليه شفاعة شافع لحاجته إليه رغبة ورهبة ، وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة . فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين ، ويصورون تماثيلهم ، فيستشفعون بها ويقولون : هؤلاء خواص الله ، فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا ، كما يتوسل إلى الملوك بخواصهم ، لكونهم أقرب إلى الملوك من غيرهم ، فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك ، وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره ، فيحتاج إلى إجابة شفاعته رغبة ورهبة .

فأنكر الله هذه الشفاعة فقال تعالى : { من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه } --]

وقال أيضاً في [مجموع الفتاوى : ١/١٢٨-١٢٩]:

[-- والشفعاء الذين يشفعون عنده : لا يشفعون إلا بإذنه ؛ كما قال : { من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه } وقال - تعالى - : { ولا يشفعون إلا لمن ارتضى } ، وقال - تعالى - : { قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير (*) ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له } . فبين أن كل من دُعي من دونه ليس له مُلك ولا شرك في الملك ولا هو ظهير ، وأن شفاعتهم لا تنفع إلا لمن أذن له . وهذا بخلاف الملوك ، فإن الشافع عندهم قد يكون له ملك ، وقد يكون شريكاً لهم في الملك ، وقد يكون مظاهراً لهم معاوناً لهم على ملكهم ، وهؤلاء يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك ، هم وغيرهم ، والملك يقبل شفاعتهم : تارة بحاجته إليهم ، وتارة لخوفه منهم ، وتارة لجزاء إحسانهم إليه ومكافأتهم ولإنعامهم عليه ؛ حتى إنه يقبل شفاعة ولده وزوجته لذلك ، فإنه محتاج إلى الزوجة وإلى الولد ؛ حتى لو أعرض عنه ولده وزوجته لتضرر بذلك . ويقبل شفاعة مملوكه ؛ فإذا لم يقبل شفاعته ؛ يخاف أن لا يطيعه ، أو أن يسعى في ضرره . وشفاعة العباد بعضهم عند بعض : كلها من هذا الجنس . فلا يقبل أحد شفاعة أحد ، إلا لرغبة أو رهبة . والله - تعالى - لا يرجو أحداً ولا يخافه ، ولا يحتاج إلى أحد ، بل هو الغني . قال - تعالى - : { ألا إن لله من في السماوات ومن في الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون } إلى قوله : { قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض } . والمشركون يتخذون شفعاء من جنس ما يعهدونه من الشفاعة . قال تعالى : { ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون } --]

ولشيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — رسالة نفيسة في هذا الباب ، تكلم في هذا النوع من الشفاعة بإسهاب ، واسم هذه الرسالة : "الواسطة بين الحق والخلق" .. فلتُراجع لمن أراد ميزد بيان وإيضاح .

الباب السابع : مسائل متعلقة بالبحث :

هذه مسائل متعلقة بهذا البحث ، أورد أجوبتها باختصار ، إذ أنّها موافقة للقواعد العامة التي ذكرتها في هذا البحث ، فمن فهمها واستوعبها ، سهل عليه استيعاب هذه المختصرات . ولعلّي أبسط الكلام في بعضها إن احتاج القارئون إلى ذلك ، فأصدر طبعة ثانية – بإذن الله – فيه ما يطلبون .

المسألة الأولى : هل الشرك الأصغر أعظم من الكبائر ؟

هذه مسألة طالما اختلطت على بعض المنتسبين للعلم ، لما رُوي عن ابن مسعود t أنه قال : (لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً) .. وجواب هذا من وجوه :

الأول : أن الرسول r جعل شهادة الزور شركاً ، فقد جاء في الحديث : صلى رسول الله r صلاة الصبح ، فلما انصرف قام قائماً فقال : « **عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله - ثلاث مرات -** » ، ثم قرأ :

{ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور (*) حنفاء لله غير مشركين به } .

قال ابن تيمية - رحمه الله - في [مجموع الفتاوى : ١٤/١٦٩]:

[-- وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ : « عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ الْإِشْرَاكَ بِاَللَّهِ » - قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : { وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } . وَهَذَا يَعُمُّ كُلَّ قَوْلِ زُورٍ ، بِأَيِّ لَفْظٍ كَانَ ، وَعَلَى أَيْ صِفَةٍ وُجِدَ . فَلَا يَقُولُهُ الْعَبْدُ ، وَلَا يَحْضُرُهُ ، وَلَا يَسْمَعُهُ مِنْ قَوْلِ غَيْرِهِ . وَالزُّورُ هُوَ الْبَاطِلُ الَّذِي قَدْ ازْوَرَّ عَنْ الْحَقِّ وَالِاسْتِقَامَةِ ، أَيْ تَحَوَّلَ ، وَقَدْ سَمَّاهُ النَّبِيُّ r : شَهَادَةَ الزُّورِ ، وَقَدْ قَالَ فِي الْمُظَاهِرِينَ مِنْ نِسَائِهِمْ { وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا } --]

فأن يُقال إن الحلف بالله صادقاً بشهادة زور (وهي شرك) أقل درجة من الحلف بغير الله كاذباً على صدق ، فهذا فيه نظر .

الثاني : ليس في كلام ابن مسعود t ما يبيّن أنه يؤثر الحلف بالله كاذباً ، يميناً غموساً ، التي جاء الوعيد الشديد فيها ، على الحلف بغيره صادقاً ..

فاليمين الغموس هي ما تُفعل لسلب حق الغير أو ظلمه بغير وجه حق ، أما مجرد الحلف كاذباً فليس يميناً غموساً .. وهذا ردّ على بعض المشايخ الذين جعلوا قصد ابن مسعود t اليمين الغموس ، فقالوا بعِظم الشرك الأصغر على كبائر الذنوب .

الثالث : ولو كان مقصود ابن مسعود t تعظيم الشرك الأصغر على الكبائر ، لكان الأولى به أن يقول : لأن ألقى الله - تعالى - بكل ذنب خلا الشرك ، من قتل وسرقة وزنى وتول يوم الزحف ، أحبّ لي من أن أحلف بغيره صادقاً .

الرابع : الحلف بالله كاذباً استهانة بعظمته I ، وحسبك ذلك كفراً أصغر .

الخامس : أنه قصد بذلك إظهار خطورة الشرك ، وجلالة التوحيد وعِظم قدره ، و لم يعنِ حقيقة المقارنة بين الحلف بالله كاذباً والحلف بغيره صادقاً ..

السادس : أنه إن كان يعني حقيقة المقارنة ، فهي مقارنة نوعية .. بمعنى : أنه قابل الحلف بالحلف .. و لم يقابله بغير جنسه .. فلا يصح أن يقول مثلاً : الحلف بغير الله أعظم عند الله من القتل !! .. هذا لا يقوله أحد .

فإن كان كذلك ، كان نفس الإثم إن خالطه شرك ، أعظم منه مجرداً منه .

المسألة الثانية : دعاء الميّت أن يدعو أو يشفع لله تعالى للحيّ ، هل هو شرك أكبر ؟

الجواب : لو كان شركاً أكبر ، لما صحّ صرفه بحال للحيّ ، فإنه لا يُجادل أحد في جواز دعاء الحيّ كي يدعو الله - تعالى - .

ولو كان الحيّ الذي يدعو الميّت يعتقد أنه عبد لله ، مخلوق ضعيف ، لا يملك من أمره شيئاً ، وهو تحت سلطان الله ، ولا يشفع إلا بإذن الله ، وإنما شفاعته من جنس دعاء العبد لربه ، فهذا لا يعدو أن يكون فعله شركاً أصغر ، لأنه لم يعتقد فيه شيء من موجبِات الألوهية كما قررنا سابقاً .

وقد بيّنا أن الآيات التي نفت الشفاعة التي يعتقدها المشركون في أصنامهم ، إنما كانت لأنهم يعتقدون أنّ لها مشيئة مستقلة ، تتصرف بدون إذن الله U ، وأنّ الله I يعجز عن ردّ شفاعتها ، لحاجته وافتقاره إليها ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

فقياس فعل بعض المبتدعة على فعل مشركي قريش الذين نزلت فيهم آيات القرآن من أكبر الباطل .

وأما من ادعى أن الاعتقاد في شيء لا يضر ولا ينفع هو شرك أكبر ، فهذا مردود عليه بأنه لا وجه في اعتقاد صفات مخلوقة مقيّدة بقدرة الله U ونسبتها إلى من يفقد هذه الصفات ، ما دام يعتقد أنه عبد لله ، مخلوق ، لا يملك من أمره شيئاً إلا بإذن الله – تعالى - .

وقياس ذلك يصحّ على الاعتقاد في التولة والتمائم . فمن اعتقد فيها سبباً في شفاء الأسقام وإبراء الآلام ، ولكنه ربط ذلك بمشيئة الله U ، فمثل هذا واقع في الشرك الأصغر ، إلا إن جعل هذه الأشياء ذوات قدرات مستقلة عن قدرة الله – تعالى - ، كما كان المشركون يجعلون الأنواء والكواكب والنجوم مدبّرات للكون من دون إذن الله .

فكذلك الحال فيمن اعتقد في الميت صفات هي موجودة في الحيّ ، بل وحتى في الملائكة ، ما دام يعتقد أن هذه الصفات هي تحت سلطان الله ومقيّدة بقدرته ، ولا تُماثل بحال صفات الله I ، فهو واقع في الشرك الأصغر .

وإن بنى على هذا المعتقد الفاسد أن يدعوه كما يدعو المخلوقين ، فيقول له : يا فلان ادع الله لي .. فهذا شرك أصغر .

أما طلب الشفاعة منه ، وقول من قال : إن من يطلب الشفاعة ممن لا يملكها فهو مشرك ، فهذا قول بلا طائل ويعوزه الدليل ، وقد علمتم ما يستدل به هؤلاء على مقولتهم هذه ، فإنها نزلت في أقوام اعتقدوا الشفاعة اللازمة في شركائهم ، وأنها تشفع بغير إذن الله I ، كما يشفع الابن عند أبيه .

ومن أدلة ذلك ، أي : أن طلب الشفاعة ممن لا يملكها ليست بشرك ، ما جاء في حديث الشفاعة الطويل ، أن الناس تذهب إلى آدم ، ثم نوح ، ثم موسى ، ثم عيسى ، عليهم السلام ؛ فتسألهم الشفاعة وهم لا يملكونها .

فهل كانوا بسؤالهم إياهم للشفاعة مشركين ؟ وهل يُمكن أن يكون هناك شرك أكبر بله معصية في الآخرة ؟ .. فإن كانوا مشركين ، فكيف سيشفع فيهم النبي r في آخر الأمر ؟

المسألة الثالثة : الفرق بين الحيّ والميت

لا فرق بين التعاطي مع الحيّ والميت في نفس الفعل ، سوى أنّه يُخشى من الميت تعظيمه وتعلق القلوب به ، إذ أنه صار في دار الغيب ، والقلوب ما أكثر ما تتعلق بالغيبيات .. وهذا هو الفارق الوحيد لا أكثر ، ولا شأن لانقطاع عمل الميت في الدنيا ، وعجزه عن تلبية ما يطلبه منه الحيّ ، فإن الحيّ لو نسب إليه قدرة مخلوقة ، تحت إرادة الله U ومشيئته ، وهو مع هذا مُثبت له العبودية ، ولا يُخرجه منها ، ولا يقول إنه مستقل بمشيئته وقدرته عن الله U ، فهذا مبتدع إن لم يكن لاعتقاده دليل من القرآن والسنة ، وإن رتّب عليه أموراً كطلب الدعاء أو الشفاعة ، وعلّق قلبه به ، فقد وقع في الشرك الأصغر .

قال ابن تيمية – رحمه الله – في [مجموع الفتاوى : ٢٧/٨٠-٨١]:

[- - وَأَمَّا التَّمَسُّحُ بِقَبْرِ النَّبِيِّ r وَتَقْبِيلُهُ : فَكُلُّهُمْ كَرِهَ ذَلِكَ وَنَهَى عَنْهُ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ عَلِمُوا مَا قَصَدَهُ النَّبِيُّ r مِنْ حَسْمِ مَادَّةِ الشِّرْكِ وَتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَهَذَا مَا يُظْهِرُ الْفَرْقَ بَيْنَ سُؤَالِ النَّبِيِّ r وَالرَّجُلِ الصَّالِحِ فِي حَيَاتِهِ ، وَبَيْنَ سُؤَالِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَفِي مَغِيبِهِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي حَيَاتِهِ لَا يَعْبُدُهُ أَحَدٌ بِحُضُورِهِ ، فَإِذَا كَانَ الْأَنْبِيَاءُ - رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَالصَّالِحُونَ أَحْيَاءً : لَا يَتْرُكُونَ أَحَدًا يُشْرِكُ بِهِمْ بِحُضُورِهِمْ ؛ بَلْ يَنْهَوْنَهُمْ عَنْ ذَلِكَ ، وَيُعَاقِبُونَهُمْ عَلَيْهِ . وَلِهَذَا قَالَ الْمَسِيحُ u : { مَا

قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } . وَقَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ r : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْت فَقَالَ : « أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا ؟ قل : مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ » وَقَالَ : « لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ، وَلَكِنْ قُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ » وَلَمَّا قَالَتْ الجويرية : (وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَعْلَمُ مَا فِي غَد) . قَالَ : « دَعِي هَذَا . قُولِي بِالَّذِي كُنْت تَقُولِينَ » . وَقَالَ : « لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ؛ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ » . وَلَمَّا صُفُّوا خَلْفَهُ قِيَامًا قَالَ : « لَا تُعَظِّمُونِي كَمَا تُعَظِّمُ الْأَعَاجِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا » . وَقَالَ أَنَسٌ : (لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ r ، وَكَانُوا إذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا لَهُ ؛ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهَتِهِ لِذَلِكَ) . وَلَمَّا سَجَدَ لَهُ مُعَاذٌ نَهَاهُ وَقَالَ : « إنَّهُ لَا يَصْلُحُ السُّجُودُ إلَّا لِلَّهِ وَلَوْ كُنْت آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدِ لَأَمَرْت الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا - مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا » . وَلَمَّا أُتِيَ عَلِيٌّ بِالزَّنَادِقَةِ الَّذِينَ غَلَوْا فِيهِ ، وَاعْتَقَدُوا فِيهِ الْإِلَهِيَّةَ : أَمَرَ بِتَحْرِيقِهِمْ بِالنَّارِ . فَهَذَا شَأْنُ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَأَوْلِيَائِهِ ، وَإِنَّمَا يُقِرُّ عَلَى الْغُلُوِّ فِيهِ وَتَعْظِيمِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ مَنْ يُرِيدُ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَفَسَادًا ؛ كَفِرْعَوْنَ وَنَحْوِهِ ، وَمَشَايِخِ الضَّلَالِ الَّذِينَ غَرَضُهُمْ الْعُلُوُّ فِي الْأَرْضِ وَالْفَسَادُ وَالْفِتْنَةُ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَاتِّخَاذُهُمْ أَرْبَابًا وَالْإِشْرَاكُ بِهِمْ ، مِمَّا يَحْصُلُ فِي مَغِيبِهِمْ وَفِي مَمَاتِهِمْ ، كَمَا أُشْرِكُ بِالْمَسِيحِ وَعُزَيْرٍ . فَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ الْفَرْقَ بَيْنَ سُؤَالِ النَّبِيِّ r وَالصَّالِحِ فِي حَيَاتِهِ وَحُضُورِهِ ، وَبَيْنَ سُؤَالِهِ فِي مَمَاتِهِ وَمَغِيبِهِ . وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ فِي عَصْرِ الصَّحَابَةِ وَلَا التَّابِعِينَ وَلَا تَابِعِي التَّابِعِينَ يَتَحَرَّوْنَ الصَّلَاةَ وَالدُّعَاءَ عِنْدَ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَيَسْأَلُونَهُمْ وَلَا يَسْتَغِيثُونَ بِهِمْ ؛ لَا فِي مَغِيبِهِمْ وَلَا عِنْدَ قُبُورِهِمْ ، وَكَذَلِكَ الْعُكُوفُ . - -]

المسألة الرابعة : تعلّق القلب بغير الله هو شرك

وقد أتيت على طرف من هذه المسألة في هذا البحث ، وقد أفردت هذه المسألة في هذا الباب لإظهار خطرها وأهميتها .

فقد يظن الظانّ أن قولنا عن فعل ما إنه شرك أصغر ، فإن ذلك قائم في كل أحوال هذا المشرك ، وهذا غير صحيح . والصحيح أن يُقال إن الشرك الأصغر الذي يملك على المُشرك فؤاده ولبّه ، بحيث لا يكون على لسانه إلا ذكر محبوبه ، ولا في فكره إلا هو ؛ فإن غفلته هذه عن الله I ، ودوام تذكره لمحبوبه وتعلّق قلبه به ، توقعه في الشرك الأكبر ، وإن لم يُصرّح هو بذلك .

يقول ابن القيم – رحمه الله – في [الداء والدواء : ٢٥٧]:

[- - وعلامة العشق الشركي الكفري : أن يقدم العاشق رضاء معشوقه على ربّه ، وإذا تعارض عنده حق معشوقه وحظه ، وحق ربه وطاعته ، قدّم حقّ معشوقه على حق ربه ، وآثر رضاه على رضاه . وبذل له أنفس ما يقدر عليه ، وبذل لربه – إن بذل – أردأ ما عنده ، واستفرغ وسعه في مرضاة معشوقه وطاعته والتقرب إليه . وجعل لربه – إن أطاعه – الفضلة التي تفضل معشوقه من ساعاته .

فتأمل حال أكثر عشاق الصور تجدها مطابقة لذلك . ثم ضع حالهم في كفّة ، وتوحيدهم وإيمانهم في كفة . ثم زن وزناً يرضى به الله ورسوله ويطابق العدل ..[إلى أن قال]**.. ولا ريب أن هذا العشق من أعظم الشرك ، وكثير منهم يصرح بأنه لم يبق في قلبه موضع لغير معشوقه البتة ، بل قد ملك عليه قلبه كله ، فصار عبداً محضاً من كل وجه لمعشوقه . فقد رضي هذا من عبودية الخالق Y بعبودية مخلوق مثله ، فإن العبودية هي كمال الحب والخضوع . وهذا قد استفرغ قوة حبه وخضوعه وذله لمعشوقه ، فقد أعطاه حقيقة العبودية - -]**

وقس على ذلك سائر الأعمال التي تتعلق فيها قلوب أصحابها بغير الله I .

وحال هؤلاء كحال من قال الله I فيهم : { **وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** } **[الزمر : ٤٥]** ، وقال : { **إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ** } **[الصافات : ٣٥]**

المسألة الخامسة : هل معصية آدم u لله U شرك بكونها طاعة للشيطان ؟

الجواب أن يقال : لا يصح أن يُعتقد في نبي من أنبياء الله U ، أنه يعصيه عالماً متعمداً ، طاعة لهواه أو الشيطان ، وهو يعلم أنه على معصية . هذا لا يصح بحال لمن بلغ رتبة النبوة .

وحيث إننا قلنا إن كل طاعة للشيطان في معصية الله – تبارك وتعالى – هي شرك ، فإننا عنينا بذلك : إيثاره وتقديمه لطاعة الشيطان على طاعة الله U تلبية لرغبة هواه وشهوته .

أما من وقع في معصية ما وهو غافل ساهٍ ، أو غائب عن الوعي ، أو مُجتهدٌ يظنّ أن ما يأتيه من معصية حسن ، فلا يُقال فيه إنه وقع في شرك الطاعة ، إذ أنه لم يقصد تقديم طاعة الشيطان والهوى على طاعة الله I ، مع كونه قد يكون آثماً في بعض الأحوال ، خاصة إن كان برتبة الأنبياء . فإن التكاليف على الأنبياء لا تكون على غيرهم . وفي الشرائع السابقة كان الناس مؤاخذين على ما أخطأوا فيه أو نسوا ، وقد اختصت أمة الإسلام بعذر الخطأ والنسيان والإكراه .. وتفصيل ذلك في غير هذا الموضع .

وقد تكلم علماء التفسير كثيراً عن ذلك عند قوله I : { **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً** } **[طه : ١١٥]** ، وذكروا أن آدم u فعل ما فعل ناسياً لنهي الله U له ، فكان ذلك موافقاً للأصول المتفق عليها في نزاهة الأنبياء وعلوّ شأنهم .

قال القرطبي – رحمه الله – في [تفسير القرطبي : ٣٠٦/١]:
[- - وقيل : أكلها ناسياً ، ومن الممكن أنهما نسيا الوعيد .
قلت : وهو الصحيح ؛ لإخبار الله - تعالى - في كتابه بذلك حتماً وجزماً ، فقال : { وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً } [طه: ١١٥] . ولكن لـمّا كان الأنبياء - عليهم السلام - يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة معارفهم وعلو منازلهم ما لا يلزم غيرهم : كان تشاغله عن تذكر النهي تضييعاً ، صار به عاصياً ، أي مخالفاً - -]

وقد كان سعيد ابن المسيب ويزيد بن قسيط يحلفان بالله U أن آدم u ما وقع في المعصية وهو يعقل .

ومن أحسن من تكلم في ذلك هو فخر الدين الرازي – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية ، وقد ردّ على من قال إنه تعمّد مخالفة أمر الله U بالأكل من الشجرة ، واستشنع ذلك القول ، فليُراجعه من أراد مزيد تفصيل في هذه المسألة .

المسألة السادسة : هل اعتقاد شيء في مخلوق مما لا يقدر عليه إلا الله يكون شركاً أكبر ؟

الجواب : هذا ليس على إطلاقه ، حتى يجعل هذه الصفة مستقلة عن قدرة الله U ، أو مماثلة لصفة من صفاته ، بأن يعتقد إطلاقها وشمولها . أما من اعتقد شيئاً مما يتصف به الله U في مخلوق ، ويجعله بإذن الله ومشيئته ، ويجعله صفة مقيّدة محدودة ، فهذا لا يعدو أن يكون مبتدعاً إن كانت هذه الصفة غير موجودة فيه .

كما قالت الجويرية : (وفينا رسول الله يعلم ما في غد) . فقال لها النبي r : « **دعي هذا قولي بالذي كنت تقولين** » .. وهي لم تقصد أنه يعلم الغيب من نفسه ، بل بوحي من الله I .

وكما أن لو شخصاً يظنّ أن لآخر قدرة عجيبة على الشفاء ، كأن تنبعث منه إشعاعات تشفي المرضى ، أو أن يده فيها خاصية وهبها الله U له تشفي مواضع المرض والألم ، من جنس اعتقاده أن لأحد الأطباء مهارة عجيبة في معالجة المرضى ، أو في نبات ما خاصية مذهلة في إبراء الأسقام .. فإن كان يعتقد أن كل هذا هو بإذن الله ، فهذا لا يكون مُشركاً .. وإذا تعلّق قلبه بهذه القدرة الموهومة ، فقد وقع في شرك أصغر ، كحال أصحاب التمائم والتعاويذ .

المسألة السابعة : في أحوال القلب الفطرية ، كالخوف والحب ، متى تكون شركاً ؟

يقول السائل : أنت تقول إنّ الخوف من غير الله شرك ، وحبّ غير الله شرك ، وطاعة غير الله شرك ، وما إلى ذلك من أحوال قلبية ، من جعلها في غير الله فهو مشرك ، بالتفصيل الذي بيّنتَه في هذا البحث في درجات هذا الشرك .

فهل خوف موسى u من الثعبان ، وخوفه من فرعون : شرك ؟

وهل محبّة الرجل لزوجته ، ولولده ، وللطعام والشراب ، وغير ذلك من زينة الحياة الدنيا المباحة : شرك ؟

أقول مستعيناً بالله : نحن عندما قررنا ذلك ، بيّنّا أن هذه الأحوال القلبية تكون شركاً إن جُعلت في مُقابل عبادة الله U ، فيعصي المرء الله I طمعاً بمتاع الدنيا ، أو خوفاً من غيره .

فهذه الأحوال القلبية لو حملت العبد على معصية مولاه ، فإنها تكون شركاً . ومن المعصية : الغفلة عن الذِّكر الواجب ؛ كالصلاة أو الصدقة الواجبة أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو برّ الوالدين ، وما إلى ذلك .

المسألة الثامنة : إشكال فيما تقرر في هذا البحث في عبادة غير الله U .

يقول ابن تيمية – رحمه الله – في [مجموع الفتاوى : ١٠/١٥٣]:
[- - وَمَنْ خَضَعَ لِإِنْسَانٍ مَعَ بُغْضِهِ لَهُ : لَا يَكُونُ عَابِدًا لَهُ . وَلَوْ أَحَبَّ شَيْئًا وَلَمْ يَخْضَعْ لَهُ : لَمْ يَكُنْ عَابِدًا لَهُ . كَمَا قَدْ يُحِبُّ وَلَدَهُ وَصَدِيقَهُ ؛ وَلِهَذَا لَا يَكْفِي أَحَدُهُمَا فِي عِبَادَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَحَبَّ إلَى الْعَبْدِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَعْظَمَ عِنْدَهُ مَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، بَلْ لَا يَسْتَحِقُّ الْمَحَبَّةَ وَالذُّلَّ التَّامَّ إلَّا اللَّهُ - -]

يقول السائل : أنت تقول إنّ من أحبّ غير الله حتى عصاه ، فقد وقع في عبودية غيره . ومن خضع لغير الله حتى عصاه فقد وقع في عبودية غيره .. فكيف تجمع بين قولك وقول ابن تيمية ؟

الجواب أن يقال : إن ابن تيمية – رحمه الله – قد يكون عنى بذلك حقيقة العبودية التي لا تكون إلا لله U ، فلا ينفع أن تخضع دون حب ، ولا ينفع أن تحب دون خضوع .

ولعلّه يقصد بذلك أيضاً مقابلة هذا مع العبادة الشرعية التي أمر الله I بها . فلا يُقال إن فلاناً يعبد فلاناً كما يعبد الله U ، حتى يتحقق في قلبه مطلق الخضوع ومطلق المحبة .. لذلك قد صدّر كلامه المذكور في السؤال في نفس الصفحة بقوله :
[- - لَكِنَّ الْعِبَادَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا تَتَضَمَّنُ مَعْنَى الذُّلِّ وَمَعْنَى الْحُبِّ ؛ فَهِيَ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الذُّلِّ لِلَّهِ ، بِغَايَةِ الْمَحَبَّةِ لَهُ - -]

وإلا ، فإن مجرد جمع المحبة مع الخضوع ليس بعبادة ، كما يحب الإنسان أبويه ويخضع لهما بالقول والفعل والقلب . لكن إن كان ذلك في معصية الله I ، كان ذلك شركاً وعبادة للأبوين .

وقد علمنا أنّ طاعة الأحبار والرهبان في تحليل الحرام أو تحريم الحلال ، هي عبادة لهم من دون الله I ، وهذا بنص حديث رسوله r ؛ وكذلك من أطاع المشركين في تحليل الميتة فإنه يعبدهم . ولا يُشترط في ذلك أن يخضع لهم أو يحبّهم . بل قد يُبغضهم ويتمرد عليهم ويحتقرهم ؛ ولكنه يستصوب رأيهم على حُكم الله Y . وقد فصّلنا هذه المسألة في باب شرك الطاعة ، فلتُراجع .

فالعبادة **بالمعنى الشرعي** إن كان يُقصد بها الله U ، فهي لا بد أن تتضمن غاية الذل مع غاية الحب . وإن كان يُقصد بها غير الله U ، فلا يُشترط ذلك ، وتفصيل ذلك في مضمون هذا البحث .

المسألة التاسعة : في دعاء الغائب ، هل هو شرك ؟

هذه مسألة مثل سابقاتها ، وقد وقع فيها الإشكال عند بعض أهل العلم . والصواب في ذلك أن يُقال إنّ دعاء الغائب إن كان باعتقاد أن الله I يُسمعه أو يُقدّر له السماع ، فليس هذا بشرك . وإن كان يرى فيه قدرة ذاتية على السماع ، مستقلة عن مشيئة الله وقدرته ، فهذا شرك أكبر .

والحديث هنا هو عن مُجرّد الفعل ، لا عمّا يصاحبه من أحوال واعتقادات وخوالج عند الذين يدعون غير الله من الأولياء والصالحين .

فإن قلوب الناس مجبولة على التعلّق بالغيبيات ، فمن دعا غائباً لجلب منفعة أو دفع مضرة ، فإنه لا بدّ أن يُعلّق قلبه به ، ويرجوه ويخشع له ، فيكون بذلك قد أشرك . كما وقع لكثير من غلاة الصوفية والرافضة والقبورية .

وقد يكون بعدها شركاً أصغر أو شركاً أكبر ، بحسب حال قلب العابد لغير الله ، وهذا لا يعلمه إلا الله ﷻ . وقد يُعرف ذلك من قرائن حال الشخص ؛ كأن لا يذكر الله إلا قليلاً ، ولسانه رطب بذكر شيخه أو وليّه الذي يدعوه ؛ أو يكون ذلك بتصريحه عمّا في قلبه .

هذا والله أعلم .